

الفصل الأول

الشعر والتاريخ

دراسة تمهيدية

obeikandi.com

توطئة

لم تكن علاقة العرب بالشعر وليدة ظرفها الآتي؛ وإنما كانت علاقة كانت عميقة الصلات موغلة الجذور، فهو مادة معرفتهم وموطن علمهم، وتراث آبائهم وموئل سحرهم، وموضع حديثهم، به يتفاخرون، ومن خلاله يتحاورون ويتميزون ويتصدرون، فكان للشاعر عندهم منزلة رفيعة يسمو بها على غيره، لأن الشعر دليل التعبير عن الحسن الدافق والنبوغ المعرفي، فهو يؤنس الوحشة ويهذب الذوق ويثري اللغة، ويعمق المدارك.

أما تعريفه، فهو: "كلام منظوم، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية"^(١). وقيل هو: "كلام موزون مقفى دال على معنى ويكون أكثر من بيت"^(٢). والدلالة على معنى عنى التعبير عن فهم جلى للحياة وتهذيب لجانب من جوانبها، فقد جاء في الحديث: إن من الشعر لحكمة، وقيل حكماً"^(٣). أي: "قولاً صادقاً مطابقاً للحق.. فالمعنى أن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع السّفه"^(٤). فكان موعظة وعبرة تؤثران في

(١) ابن منظور، محمد بن محرم (ت، ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط، الجزء الثاني (دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠م)، ٢٣٢ (شعر).

(٢) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس (ت، ٣٩٥هـ/١٠٠٤م): الصحاحي في فقه اللغة وسنن في كلامها، حققه وقدم له: مصطفى الشويبي. مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ٢٧٣.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت، ٢٥٦هـ/٨٦٩م): صحيح البخاري، الجزء الثامن (عالم الكتب، بيروت، د.س.)، ٦٣؛ ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت، ٢٧٥هـ/٨٨٨م): سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الجزء الثاني (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دون تأريخ)، ١٢٣٦.

(٤) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت، ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): فتح الباري بشرح البخاري، الجزء ١٣ (مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ١٩٥٩م)، ١٥٦.

الحياة الاجتماعية ومادة ثقافية تنير الأحداث وتكشف عن خفايا الأشياء، فتشكل موقفاً تقترن به الفصاحة بالقوة^(١). فقد كان "الشعر ديوان العرب"^(٢). لأن "به حفظت الأنساب وعرفت المآثر، ومنه تُعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله -جل شأنه- وغريب حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحديث صحابته والتابعين"^(٣). فقد كانت العرب لا تعرف "أنسابها وتواريخها وأيامها ووقائعها، إلا من جملة أشعارها"^(٤) التي توثق بها أخبارها، لأن الشعر لدى العرب كان "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"^(٥). وكان ابن عباس رضى الله عنه (ت، ٦٨هـ/ ٦٨٧م) يقول: "إذ قرأت شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب"^(٦). والديوان في اللغة: مجتمع الصحف، وهو الدفتر الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء^(٧). فالشعر بالتالى تاريخ وصحيفة توثق الأيام والأنساب واللغة والأحداث، لذا كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر هنأتها القبائل لأن الشاعر يحمى

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت، نحو ٤٩٥هـ/ ١٠٠٤م): كتاب الصناعتين (طبعة مصر، القاهرة، ١٣٢٠هـ)، ١٠٤.

(٢) الجرهمي، عبيد بن شرية (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦م): أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، ملحق بكتاب التيجان (مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ)، ٣٦٦؛ الدينوري، أحمد بن داود (ت، ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م): الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م)، ٣٣٠.

(٣) ابن فارس: الصحابي، ٢٧٥؛ السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (ت، ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البجاوي، الجزء الثاني (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، ٤٧٠.

(٤) ابن رشيق، الحسن بن رشيق القيرواني (ت، ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الجزء الأول (دار الجليل، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م)، ٢٧.

(٥) ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (ت، ٢٣١هـ/ ٨٤٥م): طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شارك، السفر الأول (مطبعة المدني، القاهرة، دون تأريخ)، ٢٤.

(٦) ابن رشيق: العمدة ٣/١.

(٧) ابن منظور: لسان العرب، ١/١٠٣٩ (دون).

أعراضهم، ويذنب عن أحسابهم، ويخلد مآثرهم، ويشيد بذكرهم^(١). هذا فضلاً عن كون الشعر يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم^(٢). فكان الشعر يخلد أبطالهم وأخبارهم، ومدار حديث نواديهم وشاهد صوابهم وخطئهم والأصل الذي يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم وأفكارهم^(٣).

وما يروى عن حكيم بن معية، أنه أقبل مع بنى سليط ودون الموقف، أي وثقه شعراً فقال:

لا يَتَّقَى حُولا ولا حَواِمِلا يَتْرُكُ أَصْفَانَ الحِصَى جَلا جِلا^(٤)

لقد صار الشعر أساساً في توثيق الأحداث التاريخية وحفظها وعدم نسيانها لأنه يثير في السامع أو القارئ لذة المتابعة والمعاشة لتلك الأحداث، وبذلك برز الاعتماد على الشعر عند المدونين الأوائل في تاريخ العرب والمسلمين الذين بدأوا بتدوين مختلف العلوم التي شعروا بضرورة تدوينها كالتفسير والحديث النبوي والمغازي والسير والأخبار، لأنه مورد من الموارد التي تساعد المؤرخ في الوقوف على تاريخ العرب والاطلاع على أحوالها^(٥). فهو العلم الذي "اختلت به عن سائر

(١) ابن رشيقي: العمدة، ١/ ٦٥.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت، ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، ٢٤١.

(٣) القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب (ت، القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي): جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: علي محمد البجاوي، القسم الأول (دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة مطبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، دون تاريخ)، ٢٩؛ ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد (ت، ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م): المقدمة (دار القلم، بيروت، دون تاريخ)، ٤٧٣.

(٤) أحمد بنو المجر من بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة: ينظر الترجمة والخبر: أبو عبيدة، معمر بن مشي التيمي (ت، ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م): نقائص جرير والفرزدق، تحقيق د. أشلي بيفان، الجزء الأول (مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٥م)، ٦، ٩.

(٥) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول (دار لعلم للملايين، مكتبة النهضة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م)، ٦٧.

الأمم"^(١)، فجعلوه مصدرًا من مصادرهم وإلى ذلك يشير التنوخي فيقول: "واعتقدت إثبات كل ما أسمع من هذا الجنس وتلميعه بما يحث على قراءته من شعر المتأخرين من المحدثين، أو مجيد من الكتاب والمتأديين"^(٢). فأدى إلى حفظ الكثير من الأخبار والأحداث لأن تداوله وحفظه يعنى حفظ وتداول الأخبار المتعلقة بذلك الحدث وهو ما كون مادة أساسية لدى الإخباريين أسهمت في تدوين الأحداث وتبويبها، فاندفع المؤرخون نحو الإكثار من الاستشهاد بالشعر والاعتماد عليه بوصفه جزءًا مهمًا في منهج كتابة التاريخ، وإن دراسته أفادت في كشف الأبعاد الحقيقية للكثير من المواقف والأسرار المتصلة بحياة الناس.

وعندما وفد عبيد بن شرية الجرهمي^(٣) على معاوية بن أبي سفيان ت، ٦٠هـ/ ٦٩٧م) وهو خليفة في دمشق "فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجاب به ما أمر به معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية"^(٤) فكانت الأيام وأخبارها مادة من مواد المؤرخ العربي في حفظ الأحداث التاريخية المتعلقة بها حتى جرى تدوين التاريخ وحساب السنين، فكان التاريخ السجل الحافل بما هو خاص وعام، وكان المؤرخ يبحث باستمرار عما يديم الصلة الحية بالوقائع عبر الصورة النقية، والكلمة العذبة، والفكرة الصادقة لغرض استنباط الحقيقة والوقوف على

(١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت، ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م): يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الجزء الأول (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ٣٠.

(٢) التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت، ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م): نشوار المحاشرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، الجزء الأول (بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ١٠.

(٣) عبيد بن شرية الجرهمي، إخباري (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦م) له كتاب (الأمثال)، وكتاب (الملوك، وأخبار الماضين). ينظر ترجمته: ابن النديم، محمد بن إسحق (ت، نحو ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م): الفهرست (المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، دون تأريخ)، ١٣٨؛ ياقوت، شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم الأدباء، نشر مير جليوث، الجزء ١٢ (دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تأريخ)، ٧٢-٧٨.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ١٣٨؛ ياقوت: معجم الأدباء ١٢/٧٨.

صحة الواقعة ومجرى الأحداث المهمة مع البحث عن الجوانب الثانوية التي تعوّض الباحث عن الوثيقة، فقد كان عبيد بن شرية الجرهمي يقول: "إن الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينهم"^(١) في عصر ما قبل الإسلام، فأشار إلى الإسلام، وأشار إلى تاريخ عاد مستعيناً بالشعر في قول الشاعر:

عَجِبْتُ لَعَادٍ وَأَمْثَالِهَا تُحَاوِلُ الْعِزَّ وَالْمُكْرَمَاتِ^(٢)

كما غدت كتابات وهب بن منبه^(٣) (ت، نحو ١١٦هـ/ ٧٣٤م) أكثر ميلاً للاتجاه الإخباري في التدوين التاريخي^(٤)، الذي يدعم المورد الشعري بوصفه شاهداً يؤكد حقيقة الخير ويوثق الأحداث التاريخية، ويحقق صحة الوقائع والأيام^(٥)، فقد سأل الحجاج بن يوسف الثقفي^(٦) (ت، ٩٥هـ/ ٧١٣م) أعرابياً "فقال: فهل تروى الشعر؟ قال إنى لأروى المثل والشواهد، قال: المثل قد عرفناه فما الشاهد؟ قال: اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر، فإني أروى ذلك الشاهد"^(٧).

(١) الجرهمي: أخبار اليمن، ٣٦٦.

(٢) نفسه.

(٣) أبو عبدالله وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص (ت، نحو ١١٦هـ/ ٧٣٤م)، ترجمته: ياقوت: معجم الأدياء، ١٩/ ١٢٨٢م): ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس الجزء السادس (دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٣٥-٣٦.

(٤) حمادي، عبدالحضر جاسم: الحركة الفكرية في القرن الأول الهجري، دراسة في بدء التدوين، رسالة ماجستير مقدمة إلى معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية (بغداد، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١١١.

(٥) ينظر: الطبري، محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ/ ١٩٢٣م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول (دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٨)، ٣٧٨-٣٧٩. في استشهاده بشعر جرير في انتقال الملك عند الفرس من (أفريدون) إلى (منوشهر) وأن الفرس تنكر هذا النسب، ولا تعرف لها ملكاً إلا في أولاد (أفريدون) ولا تقر بالملك لغيرهم.

(٦) أبو محمد، الحجاج بن يوسف الثقفي (ت، ٩٥هـ/ ٧١٣م). ترجمته: الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد الجبالي، الجزء الأول (دار الفكر، بيروت، دون تاريخ)، ٤٦٦؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت، ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): تهذيب التهذيب، الجزء الثاني (دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢١٠.

(٧) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ضبطه يوسف أسعد داغر، الجزء الثالث (دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م)، ١٣٦.

لذا وجد المؤرخون في الشعر أهمية خاصة في تدوين الأحداث ومادة في الاستشهاد وركيزة من ركائز الاعتماد في توثيق الأخبار^(١)، كما رووا شعراً يصف البلدان بلدًا بلدًا وواديًا واديًا وجبلًا جبلًا، فأحسنوا إحصاءها وجودوا وصفها في الشعر^(٢).

من هنا يمكن ملاحظة الصلة العميقة بين الشعر والتاريخ التي منحت التاريخ إمكانيات عديدة في الاستفادة من خصائص الشعر، ومنها:

الاتصال الروحي بين الشعر والتاريخ، لأنها ينطلقان من بؤرة معرفية واحدة، حتى أن أحد الباحثين الغربيين وصف الشعر بأنه "تاريخ مخلق"^(٣) بينما رأى باحث غربي آخر استمرار وجود هذه الصلة بقوله: "لا يزال التاريخ بالنسبة لي شعراً على حدّ كبير"^(٤)، فقد استعان المؤرخ بالشعر في فهم الأحداث التاريخية، فكان الشعر وثيقة يعود إليها في توكيد الخبر ووقوع الحدث^(٥).

يسد الشعر ثغرات كبيرة في دراسة التاريخ، لأنه دليل من أدلة تقوية الأخبار وتعميق المضامين بما يسهم في كشف الجوانب الخفية من الأحداث وما اكبتها من أخبار، لأن الشاعر بطبيعته ينظر إلى الحدث نظرةً فاحصةً بما ييسر للباحث في أن يجعل الشعر وثيقة تاريخية، ومصدرًا من مصادر دراسة التاريخ^(٦). فقد عمل الشعر

(١) القيسي، نوري حمودي: الشعر والتاريخ (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)، ٣.

(٢) الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوخ (مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٣٣٣-٣٣٧.

(٣) روزنتال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العي، مراجعة د. محمد توفيق حسين (مكتبة المثنى ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد - نيويورك، ١٩٦٣م)، ٢٤٥.

(٤) نف، إيمري: المؤرخون وروح الشعر، ترجمة توفيق اسكندر، مراجعة محمد شفيق غربال (مكتبة الأنجلو المصرية مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، ١٩٦١م)، ٢١٨.

(٥) القيسي: الشعر والتاريخ، ٤٠.

(٦) الطرقي، محمد حسين جاسب: دور الشعر في تدوين الأحداث التاريخية خلال القرن الثاني الهجري، رسالة ماجستير مقدمة إلى معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، قسم التراث الفكري (بغداد، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٤٧.

على كشف الأسباب والمسببات حين صاحب معارك التاريخ الكبرى، ووفر للباحث مادةً غنيةً بالمعلومات، فكان الشعر المصدر الرئيس الذي حفظ به العرب الكثير من المعلومات المختزنة^(١). فوفر للباحثين رؤية شاملة ومتعددة الأطراف منحت المنهج التاريخي رافدًا إضافيًا شارك في إنضاج المظاهر الحضارية للبحث التاريخي^(٢).

يعد الشاعر لسان قبيلته والمتحدث باسمها، فإذا قال شعرًا تناقله أفرادها وأشاعوه، وخاصة عندما يتعلق هذا الشعر بالصراع مع القبائل الأخرى، فأصبح الشعر وسيلة لحفظ الوقائع والأيام والحروب، لما يثيره في نفوس الشعراء من فخر وانتصار واعتزاز^(٣)، فكان الشعر مصدرًا من مصادر تاريخ أيام العرب حتى غدت النقائض وثيقة تاريخية مهمة في فهم الكثير من الأيام على مدى التاريخ العربي^(٤). ذلك لأن الروايات القبلية كانت تتداول شفاهًا وبصورة نثرية، فأدى الشعر دورًا أساسيًا في إيصالها وخصوصًا إذا كان الشاعر قد شارك في الأحداث بما يعطيها حيوية وتأثيرًا بحيث أصبح الشعر بمرور الزمن الوثيقة التي تعزز صحة القصة، أو صحة الواقعة التاريخية، فقد تسابقت القبائل في حفظ أيامها وأشعارها فحفظت تاريخًا حافلًا بالأحداث.

أثر الشعر تأثيرًا واضحًا في تدوين الأخبار والسير، وانتشار رواية القصص والوقائع فحفلت كتب التاريخ بالأشعار الكثيرة التي كانت شاهدًا حيًا له أهميته في توثيق الأحداث، فقد شجع معاوية بن أبي سفيان (ت، ٦٠هـ / ٦٩٧م) على تدوين سيرة تُبَعُّ وأشعاره^(٥)، بما يجعل الشعر دليلًا على صدق ما يروى، فهو كالشاهد

(١) حسين، عبدالله محمود: تدوين الحروب في الشعر الجاهلي (منشورات مكتبة النهضة، مطابع دار التضامن، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م)، ٣٩-٤٠.

(٢) القيسي: الشعر والتاريخ، ١٦.

(٣) ضيف، شوقي: العسر الإسلامي (دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م)، ٢٤٥.

(٤) الدوري، عبدالعزيز: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣م)، ١٠٦.

(٥) ينظر الأصفهاني، علي بن الحسين (ت، ٣٥٦هـ / ٩٦٦م): الأغاني، الجزء ١٨ (دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م)، ١٨٢: ياقوت: معجم الأدباء، ٧٨/١٢.

الذى يوضح الحدث ويفسر ما غمض منه. لذا صارت الكتابة في الأحداث التاريخية بما فيها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ومغازيه تعتمد على الشعر في توثيق رواياتها والدليل على ذلك ما جاء عند ابن إسحاق (ت، ١٥١هـ/٧٦٨م) في كتابه (السيرة) وعلى ما بذله ابن هشام (ت، ٢١٣هـ/٨٢٨م) في تهذيب هذا الكتاب وحذف الكثير من الشعر الذى ورد في كتاب ابن إسحاق، إلا أن سيرة ابن هشام لا زالت تحوى الكثير من الشعر^(١).

مما لا ريب فيه أن معرفة الأنساب صارت موردًا من موارد معرفة تاريخ العرب، طيلة قرنين من ظهور الإسلام^(٢)، والتي توارثت تلك المعارف عن طريق الشعر، خاصة شعر النقائص، وفي الروايات العائلية والقبلية، وفي سجلات دواوين الجند^(٣). وقد أسهم الشعر بشكل خاص في تدوين وحفظ الأنساب، فأسهم بذلك في حفظ الأحداث التاريخية التي وثقها الشعر والتي تعاون النسّابون والمؤرخون على حفظها والاهتمام بروايتها^(٤)؛ لذا كثرت الإشارات - في الشعر - إلى النسب في القبائل، وإلى قحطان وعدنان^(٥)، فكتاب (الإكليل) حافل بالإشارات الشعرية إلى الأنساب، كما في توثيقه لنسب عبدشمس بن يشجب:

(١) ينظر على سبيل المثال ابن إسحاق، محمد بن إسحق المظلي (ت، ١٥١هـ/٧٣٣م): السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار (دار الفكر، بيروت، دون تاريخ)، ٦٢-٦٤، ٣١١، ٣٢٠-٣٢٢؛ ابن هشام، عبدالمملك بن هشام المعافري (ت، ٢١٣هـ/٨٢٨م): السيرة، تقديم وتعليق وضبط طه عبدالرؤوف سعد، الجزء الأول (دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م)، ٢٤٠، ٢٨٨، ٦٦/٢، ١٨١، ٦٣/٣، ١٥٦-١٦١، ٤٥/٤، ١٠٨.

(٢) حمادي: الحركة الفكرية، ١١٨.

(٣) الدوري: بحث، ٤٠.

(٤) ينظر على سبيل المثال ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت، ٢٠٤هـ/٨١٩م): جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن (عالم الكتب، مكتبة النهضة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ٤٨، ١٩٠، ٢٠٧، ٣٧٠، ٥١٣، ٩٥٤؛ الطبري: تاريخ، ٢/٢٧٤؛ ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الندلسي (ت، ٤٥٦هـ/١٠٦٣م): جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٢م)، ٨٢، ١٧٢، ٢٩٦.

(٥) الدوري، عبدالعزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية (مركز دراسات الوحدة العربية، دار المستقبل العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م)، ٥٠.

وأيننا عبدُ شمسٍ وابنه زَرَعَةُ القَيْلِ وذى التاجِ قَطن^(١)

وقد تضمن كتب الأنساب شعراً يوثق بعض الأنساب مما أسهم في توثيقها وحفظها، وهو الذى شجع القبائل على جعل الشعر سجلاً لوقائعها^(٢)، ومفاخرها ومآثرها القبلية وهو يتضمن إشارات واضحة إلى أنساب بعض القبائل والبطون:

وللشعر المدون فى المصادر التاريخية دور كبير فى تحديد مواقع العرب وغيرهم وتسميتها ورسم معالمها وطبيعة ظروفها المناخية والاقتصادية، ومن الشعر فهم الجغرافيون جوانب كثيرة من علمهم والتي أودعوها فى بطون مؤلفاتهم، ومنهم الهمداني^(٣)، وياقوت^(٤)، والقزويني^(٥)... وغيرهم. فصور الشعر مواقع الرب وواقع حياتهم من خلال تصوير الأمكنة وتعرض لتصوير المحسوسات المحيطة بالإنسان وبالذات بيئته التي هي وعاء ينبثق من داخله مجتمع استطاع أن يكون حضارة عريقة وينشئ مجتمعاً قوياً استنهض كل جوانب الحياة واستثمرها، فلولا هذه البيئة لما ولد مجتمع عربي إسلامي كان له مكانته ووجوده وتأثيره.

أبرز الشعر القيم الاجتماعية والأعراف والمعتقدات التي كانت سائدة فى المجتمع العربي، فوثقها وعمل على إيصالها على الأجيال اللاحقة، فكان صورة صادقة لأحاسيس السواد الأعظم، بما يكشف عن اللقاء الإنساني

(١) الهمداني، الحسن بن علي بن يعقوب (ت، ٣٣٤هـ/٩٤٥م): الإكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، الجزء الثاني (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م)، ٥٥.

(٢) ينظر: النص، إحسان: العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموري (دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م)، ٥٤٤؛ مصطفى، شاكرا: التاريخ العربي والمؤرخون، الجزء الأول (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م)، ١٠٤.

(٣) الهمداني: الإكليل، ٨/١٠، ٤٤، ٥٩؛ صفة، ٣٢٤-٤٠٤.

(٤) ياقوت، ياقوت بن عبدالله الحموي (ت، ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، الجزء الأول (دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ)، ٥٠، ١٣٠، ٢٠٦، ٢/٤١، ١٩٥، ٣٢٠، ٣/٦٢، ١٥٦، ٢٥١، ٤٥٦، ٣٣٥، ٤/١٣٣، ٢٤٣، ٣١٥، ٤٠٨، ٥/٦٧، ١٢٥، ٢١١، ٣٣٤، ٤٤١.

(٥) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت، ٦٢٨هـ/١٢٣٠م): آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر، بيروت، دون تاريخ)، ٥١، ٩٩، ١٣٤، ٢٠٣/٤٨٥، ٥٦٢.

والوجداني بين الشاعر وقبيلته أو مجتمعه، فعرض الشعر بذلك حياة العامة مثلما عرض حياة الخاصة^(١).

لقد عكس الشعر واقع الأحداث الإنسانية وما فيها من مضامين فكرية وشعور إنساني وطبائع اجتماعية ومعتقدات دينية، وقيم أخلاقية تكشف عن كيفية التعامل بين الإنسان وبيئته ومجتمعه، كما عكس نتائج هذه الاتجاهات وإفرازاتها العقائدية والسياسية والاقتصادية، وفي كل ذلك دلالة على وجود ترابط وثيق بين الشعر والتاريخ، فهما رفيقان في درب واحد.

أسهم الشعر في تفسير ما غمض من آيات القرآن الكريم، بوصفه حامل ثقافة العرب، ومعجم ألفاظها، والمعبر عن مشاعرها وحواسها حتى أن ابن عباس قال: "إذا قرأتم من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب"^(٢)، كما أسهم في تفسير غريب القرآن الكريم^(٣) وغريب الحديث^(٤) النبوي

(١) ينظر على سبيل المثال عبيد بن الأبرص (ت، نحو ٥٥٥م): الديوان، تحقيق: تشارلس ليال (دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ٢٦، ٣١، ٤١، ١٣٨، ١٤١؛ أمية بن أبي الصلت (ت، نحو ٦٣٠هـ/٦٣٠م): حياته وشعره، دراسة وتحقيق: بهجة عبد الغفور الحديثي (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٩١م)، ٥٠، ٩١، ٩٥، ١٥٧، ١٨٤/٢١٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٩٠، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٢، ٣١٩، ٣٢١؛ الحوفي، محمد أحمد: الحياة العربية في الشعر الجاهلي (دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٧٢م)، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٧٦، ٢٩٩، ٣٠٨، ٣٢٢، ٣٣٩، ٣٧٠، ٤٣٤.

(٢) ابن رشيقي: العمدة، ٣/١.

(٣) ينظر على سبيل المثال في تفسير القرآن الكريم: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ/٩٢٣م): جامع البيان في تفسير القرآن، الجزء السابع (دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ١٥١، ٣٤/٨، ٩٣/١٠، ١٥٨؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت، ٧٤٤هـ/١٣٧٢م): تفسير القرآن العظيم، الجزء الثالث، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م)، ٣٧، ٤٠، ١٣٦، ٢٧٣، ٤٣١، ٤٣١، ٢٦٦/٤، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٧٧، ٣٠٤، ٤٤١.

(٤) ينظر على سبيل المثال في شرح غريب الحديث النبوي الشريف: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت، ٢٧٦هـ/٨٩٩م): غريب الحديث، تحقيق: د. عبدالله الجبوري، الجزء الأول (وزارة الأوقاف - إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/٩٧٧م)، ٥١٦، ١٧، ٦١/٢، ٤٩٠، ٤٣٢، ٣٠٤.

الشريف، فكان الشعر مادة لغوية ثرية قادرة على كشف الكثير من غوامض النصوص بيان أصولها الواقعية الضاربة في أعماق التراث العربي وتاريخ العرب قبل الإسلام.

عصر ما قبل الإسلام:

اهتم العرب في رواية الشعر وتداوله لأنه يعبر عن إحساسهم ويصور أحداثهم ويرسم لهم المعاني التي يرنون إليها، فهو سجلهم الذي حفظ مآثرهم وأيامهم وما كانوا لهم فيه من عادات وتقاليد وما سموا إليه من معتقدات روحية ومعاني إنسانية، ومما لا شك أن الاهتمام لدى العرب قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً مع تاريخهم الطويل.

وبالإمكان القول أن توجه العرب إلى الشعر إنما هو مرتبط مع بدء تكوينهم الحضارى، ولا تتفق كثيراً من تحديد زمن معلوم لمثل هذا التوجه الذى يحاول أن يضع تاريخاً تقريبياً لبداية الشعر كقول الجاحظ: "وإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمأتى عام"^(١) لأن القرنين من الزمن التى سبقت ظهور الإسلام لا يمكن أن تكون بداية للشعر عند العرب، إلا إذا قصد من ذلك الشعر الموثوق المعبر عن الحدث وطبيعة الحياة وهذا ما نميل إليه في تأويل ما ذهب إليه الجاحظ في هذا النص.

وثمة حرص واضح عند العرب لحفظ الشعر لما فيه من معلومات تخص تاريخهم وما وقع فيه من أحداث، وساعدهم على ذلك سلامة الذاكرة وسرعة الحفظ بحيث أنه كان لا يدخل شيئاً إلى مسامع الفرد العربى إلا حفظه، واستمرت هذه الخاصية حتى بعد ظهور الإسلام، فلا نقرأ قصة من قصص أيام العرب، إلا ونجد فيها شعراً ينسب إلى أحد الأبطال الذين ساهموا فيها، أو شعراً يذكر فيه قائله قومه أو

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت، ٢٥٥هـ/٨٦٨م): الخيوان، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون الجزء الأول (شركة ومطبعة مصطفى البابي الخلبى وأولاده بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م)، ٧٤.

خصوصوهم، فكان أن حفظ الشعر تلك الأيام في ذاكرة الأجيال، ثم أقدم المدون فدونها، فوصلت إلى أيام التدوين^(١) وتناقلتها كتب ومؤلفات اللّاحقين بعده، فظل الشعر أداة للتوثيق، وبقيت قوة الكلمة مواكبة لقوة الاندفاع من أجل تسجيل المجد القبلي^(٢) ولذلك أرّخت كل قبيلة بيوم مشهود من أيامها المشهورة في حروبها^(٣).

زعم "الإخباريون أن نوحًا عليه السلام خرج من السفينة يوم عاشوراء، واحتجوا بأشعار المتقدمين في هذه القصص"^(٤). كما في قول الشاعر أمية بن أبي الصلت:

وقد تُدرك الإنسانَ رحمةُ ربِّه ولو كانَ تحتَ الأرضِ سبعينَ واديا
تعال وتُدركهُ من اللهِ رحمةٌ ويُضحى نَناه في البريةِ زاكيا
كرحمةِ نُوحٍ يومَ حَلِّ بسبعةٍ لمهبطِهِ كانوا جميعاً ثمانيا
فلما استنارَ اللهُ تنورَ أرضه ففارَ وكانَ الماءُ في الأرضِ ساجيا^(٥)

وقال في قصيدة أخرى:

فسارت بهم أيامها ثم سبعةً وستُ لَيالٍ دائبات غواطيا^(٦)

(١) علي: الفصل، ٦٦/٩.

(٢) القيسي، نوري حمودي: البطل في التراث (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ م)، ٣٧.

(٣) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ/٩٥٧م): التنبيه والإشراف (دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ١٧٤.

(٤) ينظر المقدسي، المطهر بن طاهر (ت، ٣٥٩هـ/٩٦٩م): البدء والتاريخ المنسوب لأبي زيد البلخي، شرح كلّمان هوار، الجزء الثالث مطبعة برطونند، شارلون - باريس، ١٩٠٣م)، ٢٤.

(٥) من شعراء ثقيف بالطائف أدرك الإسلام ولم يسلم، شعره له علاقة بالقصائد والديانات (ت، نحو ٩هـ/٦٣٠م). ترجمته: المرزباني، محمد بن عمران بن موسى (ت، ٣٨٤هـ/٩٩٤م): الموشح، تحقيق علي محمد الجاوي (دار نهضة مصر، مطبعة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٥م)، ١١٢؛ البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي: سمط الآلي في شرح أمالي الفاي، تحقيق عبدالعزيز الميني، الجزء الأول (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٦٣م)، ٣٦٢.

(٦) شعره، ٣١٧-٣١٨.

(٧) نفسه، ٣١٩. ينظر أيضًا، ٣١٢.

لقد عرض الشعر أحداث التاريخ البعيدة في الزمن، ومنها الطوفان، ولذلك استعان المؤرخون بالشعر لتوثيق الأحداث، ومنها الواردة في الكتب الدينية كالقرآن الكريم، ومن هؤلاء أمية بن أبي الصلت الذي كان على جانب كبير من المعرفة الدينية ورغب عن عبادة الأصنام وكان يحكى قصص الأنبياء^(١)، لذا قال عنه النبي (صلى الله عليه وسلم): "فلقد كان يسلم في شعره"^(٢) واستشهد الطبري بشعره عندما بين السبب الذي من أجله أمر نبي الله إبراهيم "عليه السلام" بذبح ابنه، وأن ذلك كان من نذر إبراهيم كان قد نذره، فأمره الله بالوفاء به^(٣)، وفي ذلك يقول أمية:

ولإبراهيم الموفى بالند	راحتساباً واحمِل الأجزاء
يكره لم يكن ليصبر عنه	أويراه فى معشر أقتال
أبنى إتى نذرتك لله	شحيطاً فاصبر فدى لك حالي
فأجاب الغلام أن قال فيه	كل شيء لله غير انتحال
أبتى إتنى جزيتك بالذ	ه تقياً به على كل حال
فأقض ما قد نذرت لله وأكففت	عن دمي أن يمسه سر بالي
واشدذ الصفد لا أحميد عن السكين	حيد الأسير ذى الأغلال ^(٤)

فقد سرد الشاعر حادثة الذبح سرداً يعبر عن نضج رواية هذه الحكاية وكثرة تداولها، وعلى تمكن الشاعر في ترتيبها لاطلاعه على مصادر دينية قديمة

(١) ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت، ٢٧٦هـ/٨٨٩م): الشعر والشعراء، تحقيق محمد يوسف نجم وإحسان عباس، القسم الأول (دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٣٦٩.

(٢) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت، ٢٦١هـ/٨٧٤م): صحيح مسلم، الجزء الثاني (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ٣٨٥.

(٣) الطبري: تاريخ، ١/٢٧٧.

(٤) شعره، ٢٥١-٢٥٢: الطبري: تاريخ، ١/٢٧٨ مع شيء من الاختلافات.

استطاع المؤرخ الاستفادة منها في بحث هذا الحدث التاريخي والديني بحثاً معززاً بالشعر.

كان يوم (جبله) قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة قبل مولد النبي، صلى الله عليه وسلم، بسبع عشرة سنة^(١). وفي ذلك يقول حليف بنى نمير بن عامر، وهو المعقر بن أوس بن حمار البارقي:

أَمِنْ آلِ شَعَثَاءِ الْحَجُولِ الْبَوَاكِرِ
وَحَلَّتْ سُلَيْمَى فِي هِضَابِ وَأَيْكَةِ
وَأَلَقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى
وَصَبَحْنَا أَمْلَاكُهَا بِكَيْتَابَةِ
مُعَاوِيَةَ بْنِ الْجَوْنِ ذَبِيانَ حَوْلَهُ
فَمَرُّوا بِأَطْنَابِ الْبُيُوتِ فَرَدُّهُمْ
وَقَدْ جَمَعُوا جَمْعًا كَأَنَّ زَهَاءَهُ
مَعَ اللَّيْلِ أَمْ زَالَتْ قُبَيْلُ الْأَبَاعِرِ
فَلَيْسَ عَلَيْهَا يَوْمَ ذَلِكَ قَادِرِ
كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ
عَلَيْهَا إِذَا أَمَسْتَ مِنَ اللَّهِ نَاطِرِ
وَحَسَّانَ فِي جَمْعِ الرَّيَابِ مَكَاثِرِ
رِجَالًا بِأَطْرَافِ الرَّمَاحِ مَسَاعِرِ
جَرَادٌ هَوَى فِي هَبْوَةِ مَتَطَايِرِ^(٢)

توثق القصيدة مقدار الجمع الذي كان وتبين حجمه بما يعبر عن أثر الشاعر في حفظ تفاصيل هذا الحدث التاريخي وتحديد معالم الواقعة والإشارة على شخصياتها من أمثال معاوية وحسان، وكيف تلاحم الطرفان عند أطناب البيوت بما يكشف عن خطورة الصراع وحراجه الموقف حتى استطاع المدافعون عن حمى القبيلة ردَّ المهاجمين بعد أن جمعوا جمعًا يشبه الجراد في كثرته.

حين خمد أوار الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان، قال الشاعر زهير بن أبي سلمى^(٣):

(١) أبو عبيدة: النقائض، ٢/٢٧٦؛ وعند الطبري أن يوم جبله كان عام الفيل. ينظر: تاريخه، ٢/١٥٤.

(٢) أبو عبيدة: النقائض، ٢/٦٧٦.

(٣) زهير بن أبي سلمى الزماني، شاعر من الطبقة الأولى، من أصحاب المعلقات. أدرك الإسلام (ت)، ٦١٥م). ترجمته: ابن سلام: طبقات، ١/٥١؛ الأصفهاني: الأغاني، ١٠/٢٩٨.

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طَافَ حوله رجالَ بنوه مِن قريشٍ وجُرمهم
يَمِينًا لنعمَ السَّيدانِ وجدُّنا على كلِّ حالٍ من سحيلٍ ومبرم
تَداركُنا عِبَسًا ودُبيانَ بَعْدَمًا تَفانوا ودَقَّوا بينَهم عِطْرَ مِنشَم^(١)

فإذا كان زهير "نظامًا متوقفيًا"^(٢) يديم النظر في القصيدة حولاً كاملاً، فإنه لا بد وأن يكون ملماً بأيام العرب وتاريخهم، وأن يكون دقيقاً في توثيق الأحداث وتصويرها حتى وصلت إلينا على هذه الصورة حيث أشار إلى قبيلة جُرمهم وقريش، مثلما أشار إلى منشم العطرة التي يضرب المثل بعطرها.

كانت العرب تؤرخ بوفيات الأشخاص المهمين، فلما "مات الوليد بن المغيرة أرخت قريش بوفاته لإعظامها إياه حتى كان عام الفيل فجعلوه تاريخاً"^(٣) كما أرخت "بوفاة هشام بن المغيرة تسع سنين إلى أن كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة فأرخوا بها"^(٤). فحين غزا أبرهة مكة جاء عبدالمطلب إلى باب الكعبة فتعلق به^(٥) وقال:

لا همَّ إن المَرَّةَ يَمُنن مَع رَحْلِهِ فَمَنعَ جِلالِكَ
لا يَغْلِبَنَّ صَبْرٌ لِيُهِم ومَحالُّهم عَدواً مَحالِكَ
ولسِنَ فَعَلتْ فَإِنَّه أَمَرَّتْ سَتْمُ بِهِ فِعْعالِكَ^(٦)

(١) زهير بن أبي سلمى (ت، ٦١٥م): ديوانه بشرح ثعلب، أحمد بن يحيى بن زيد (ت، ٢٩١هـ/٩٠٣م)، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م)، ١٤-١٥.

(٢) السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر (ت، ٩١١هـ/١٥٠٥م): شرح شواهد المغني، تصحيح وتعليق: محمد محمود ابن التلاميذ وأحمد ظافر كوجان، القسم الثاني. (لجنة التراث العربي، دمشق، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ٢٥٦.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ١٦/١٣٦.

(٤) نفسه.

(٥) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهيب بن واضح (ت، ٢٩٢هـ/٩٠٤م): تاريخ اليعقوبي، تعليق محمد صادق بحر العلوم، الجزء الأول (المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ٢٢٢.

(٦) ابن إسحق: السير والمغازي، ٦٢؛ ابن هشام: السيرة، ١/٤٥؛ اليعقوبي: تاريخ، ١/٢٢٣؛ الطبري: تاريخ، ٢/١٣٨٩ مع اختلاف بعض الألفاظ.

لقد حفز الحدث التاريخي زعيم أهل مكة لأن يستنصر ربه من أراد به وبدينه
وببلده شرًا، فاقرن شعره بصفة العدو الدينية، وهو الصليب رمز المسيحية، فلما
انصرف أصحاب الفيل عن مكة قال عبدالمطلب:

مَنْعَتَ الْأَرْضَ الَّتِي حَمَيْتَ مِنْ اللَّثَامِ فَلَمْ تَخْلُفْ لَهُمْ دَارًا
مَنْعَتَ مَكَّةَ مِنْهُمْ إِنِّي رَجُلٌ ذُو أُسْرَةٍ لَمْ تَكُنْ فِي الْحَبِّ غَدَارًا
إِذَا قُلْتُ يَا صَاحِبَ الْجِيْشَانِ إِنِّي لَنَا مِنْ دُونِ أَنْ يَهْدِمَ الْمَعْمُورُ أَخْطَارًا
فَسَارَ فِي جَيْشِهِ بِالْفِيلِ مُقْتَدِرًا وَسِرْتُ مُسْتَبْسَلًا لِلْمَوْتِ صَبَّارًا
فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ لَيْسَ مِثُّهُمْ بِمَوْرَثِ حَيِّهِمْ شَيْئًا وَلَا عَارًا^(١)

كان انتصار قريش على جيش أصحاب الفيل مؤثرًا فأسهّم في خلودها في
الأذهان وجعل منها تاريخًا مشرفًا للعرب قبل ظهور الإسلام، ودفع الشعراء إلى
توثيقها، ولما كان عبدالمطلب في المواجهة فإن شعره هذا يعد وثيقة تاريخية مهمة،
وهو ما دفع الشعراء إلى توثيق مواقعها وحركة الجيوش فيها، فكان الشعر تحليدًا لها
من خلال تثبيت أماكن الجيوش وتحديد مواضعها الجغرافية بعد أن اندرست بتقدم
الزمن عليها وبذلك صار الشعر سجلًا "للتاريخ الزماني والمكاني لهذه المواقع"^(٢).

فهذا عبدالله بن الزبيرى^(٣) (ت، ١٥ هـ/ ٦٣٦ م) يشير إلى وقعة الفيل فيقول:

تَنْكَلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تَخْلُقِ الشُّعْرَى لِيَالِي حُرْشَمَتُ إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنْبَامِ يَرُومُهَا
سَائِلَ أَمِيرِ الْجِيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى وَلَسَوْفَ يُبْنَى الْجَاهِلِينَ عَلَيْهَا
سَتُونَ أَلْفًا لَمْ يُؤْوَبُوا أَرْضَهُمْ وَلَمْ يَعِشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا

(١) ابن إسحق: السير والمغازي، ٦٤.

(٢) القيسي: الشعر والتاريخ، ٣٨.

(٣) عبدالله بن الزبيرى بن قيس الفهري، صحابي في شعراء قريش. ترجمته: الأصفهاني: الأغاني، ١٥/

١٣٨؛ السيوطي: شرح، ٥٥١/٢.

كأنت بها عادٌ وجُرهمُ قبلهم ^(١) والله من فوقِ العبادِ يُقيمها

يحدد الشاعر عدة الجيش الغازي يستين ألفاً، ويذكر أنهم لم يؤوبوا إلى وطنهم، أما السّقيم الذي لم يعش فهو أبرهة بن يكسوم المعروف بالأشرم ^(٢). فقد حملوه معهم حين أصيب حتى مات بصنعاء ^(٣).

وقد ذكر أمية بن أبي الصلت (ت، نحو ٥٩هـ / ٦٣٠م) ما لاقاه جيش أبرهة، فكان كلهم مكسور الساق:

إن آيات ربنا بيّناتٌ
خلق الليل والنهار فكلٌ
ثم يجلو الظلام ربّ كريمٌ
حبس الفيل بالمغمس حتى
لازمًا حلقه الجران كما قُطّ
حوّله ملوك كندة أبطًا
خلفوه ثم ابدعروا جميعًا
ما يُمارى فيهن إلا الكفورُ
مستبين حسابُه مقدورُ
بمهارة شُعاعها منشورُ
ظُلّ يَجبو كأثُه معفورُ
رَمَن كَبكبِ محذورُ
لَ ملاويتُ في الحروبِ صقورُ
كلُّهم ساقُه مكسور ^(٤)

وهذا ما جعل الشعر سجلاً يتضمن بعض التفاصيل عن يوم الفيل، وما حدث فيه من تفاصيل تكشف عما حصل لجيش الغزاة.

وفي يوم ذي قار ^(٥) الذي كان بين العرب والفرس، فقتل فيه جميع الفرس ومن معهم ^(٦) قال الأعشى ^(٧) (ت، ٧هـ / ٦٢٩م):

(١) ابن الزبيري، عبدالله (ت، ١٥هـ / ٦٣٦م): شعره، تحقيق يحيى الجبوري (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ٤٩-٥٠.

(٢) الطبري: تاريخ، ٢ / ١٥٤.

(٣) ابن هشام: السيرة، ١ / ٥١.

(٤) شعره، ٣٣٧-٣٣٩.

(٥) ماء لبني بكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس. كما في: ياقوت: معجم البلدان، ٤ / ٢٩٣ (قار).

(٦) الطبري: تاريخ، ٢ / ٢١٠.

(٧) ميمون بن قيس بن جندل، شاعر أدرك الإسلام ولم يسلم (ت، ٧هـ / ٦٢٩م). ترجمته: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ١ / ١٧٨؛ البكري: سمط، ١ / ٨٣.

فدىّ لبنى دُهل بن شيبان ناقتي
هُمُ ضربوا بالحنوِ حنوا قراقِرِ
فليله عينا من رأى من عصابةٍ
أتهم من البطحاءِ يبرق بيضها
فثاروا وثرنا والمنية بيننا
وقد شمّرت بالناس شمطاء لاقح
كفوا إذ أتى الهامرِز تخفق فوقه
وأحموا جمى ما يمنعون فأصبحت
أذاقوهمو كأساً من الموت مُرّةً
سوا بغهم بيضٌ خفاف وفوقهم
ولم يبق إلا ذات ريع مفاضةً
فصبحهم بالحنوِ حنو قراقِرِ
على كُلى محبوك السّراة كأنه
فجادت على الهامرِز وسط بيوتهم
تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم

وراكبها يوم اللقاء وَقَلتِ
مُقدمة الهامرِزِ حتى تولتِ
أشدّ على أيدي السّعاة من التي
وقد رُفعت راياتها فاستقلّتِ
وهاجّت علينا غمرة فتجلّتِ
عواناً شديدةً همزها فأضلتِ
كظلّ العُقابِ إذ هوت فتدلّتِ
لنا ظعن كانت وقوفاً فحلّتِ
وقد بذخت فرسانهم وأدلتِ
من البيضِ أمثالِ النجومِ استقلّتِ
وأسهلَ منهم عصابة فأطلّتِ
وذى قار منها الجنودَ فقلّتِ
عقابٌ هوت من مرّقب إذ تعلّتِ
شأيب موتٍ أسبلت واستهلّتِ
فوارسَ من شيبانَ غلبَ فولّتِ^(١)

يعد هذا اليوم من الأيام التي لها وقع مؤثر في تاريخ العرب قبل الإسلام، لأنه كشف عن استقلالية واضحة بالرأى، فلا غرو أن يتغنى الأعشى بها، فهو من قبيلة لاقت الأمرين من تسلط السّاسانيين، فكان شاهد انتصار قبيلته على دولة الفرس، فقد كان الشعراء يتغنون بانتصار أبناء قومهم، مما بين الأثر المهم في تاريخ تدوين الحروب والوقائع^(٢). لذا كان شعر الأعشى وثيقة حية حملت معها الموقف

(١) الأعشى، ميمون بن قيس (ت، ٧هـ/٦٤١م): ديوانه: شرح وتعليق م. محمد حسين. (مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، القاهرة، دون تاريخ)، ١٥٩-١٦١.

(٢) حسين: تدوين الحروب، ١٠٨.

الاجتماعى لهذه القبيلة، وموقف العرب الذين عانوا استهانة الفرس بوجودهم القومى والإنسانى والإقليمى؛ وبهذا غدا الشعر صورة للواقع وما يعكسه من صراعات ومواقف تشكل فى مجموعها رؤية عميقة للفعل الإنسانى المؤثر فى حركة التاريخ وقدرة الإنسان العربى على خلق مقومات الانتصار، وهذا بدوره مهم لظهور أمة قوية استطاعت أن تستوعب الرسالة الإسلامية وتنطلق منها نحو آفاق واسعة لتستعيد مجدها وعنفوانها وتؤسس حضارة أصبحت موضع دراسة وبحث مستمرين منحت الإنسانية دفقة عالية من النمو والتقدم حتى الآن.

عصر الرسالة الإسلامية:

بعد مبعث النبى محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) وحمله رسالة الإسلام حدث صراع قوى بين عقائد أهل الشرك وعقيدة التوحيد الإسلامية أدت إلى هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم)، ثم نشوء نواة الدولة العربية الإسلامية التى تأسست على تشريعات الرسالة الإسلامية السمحاء على وفق ما جاء به القرآن الكريم وسنة النبى (صلى الله عليه وسلم)، فكان ذلك مقدمة لبروز منطلق جديد يحدد بدء الرسالة، ثم بدء الهجرة النبوية المشرفة، فكان ذلك نقطة انطلاق نحو التاريخ.

وقد برزت الحاجة لدى أصحاب الدين الجديد على وسيلة إعلامية ليوажوها بها الإعلام المضاد الذى يشنه شعراء مشركى قريش فى مكة، وليبان موقف الإسلام من الشعر، فقد كان الشعر عند العرب أرقى معارفهم وأكثرها تأثيراً، فجاء واضحاً وجلياً بعد أن أعجز القرآن العربى إعجازاً لفظياً ومعنوياً، حتى جاء فى الذكر الحكيم: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (١) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٤﴾. ويريد بهم الذين ((ذكروا الله فى كلامهم وقيل فى شعرهم وكلاهما صحيح مكفر لما سبق)) (٢). أى ما قدمه من

(١) سورة الشعراء: الآيات، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) ابن كثير: تفسير، ٣/٣٥٥.

حكمة أو حكماً^(١) مطابقاً للحق^(٢) على وفق المقياس الأخلاقي في اجتناب الشر والالتزام بالخير، فكان التحوُّل في أهمية الشعر وأثره في الظروف السياسية والاجتماعية يعد تغييرًا خطيرًا في مسيرة الشعر العربي، ومنعطفًا في أغراضه ومراميه حتى اعتقد الأصمعي (ت، نحو ٢١٦هـ/ ٨٣١م) أن "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير الآن، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب - من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهم وغيرهم - من شعره. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والنابعة، من صفات الديار والرحل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار؛ فإذا أدخلته في باب الخير الآن"^(٣)، في حين يرى أحد الباحثين المحدثين أن الشعر في صدر الإسلام نشط متأثرًا بالظروف السياسية والاجتماعية الجديدة في الحواضر، وبالمفاهيم والقيم الإسلامية^(٤). فانتقلت زعامة الشعر من البوادي إلى الحواضر، وهذا ما قلل من جزالته^(٥).

كان لشعر شعراء المشركين واليهود أثر كبير على نفوس المسلمين لما كان له من ذبوع وانتشار بين القبائل العربية الساكنة خارج المدينة والتي لا يصل إليها عامل التأثير إلا من خلال الشعر، والذي كان المشركون فيه أكثر سبقًا من المسلمين. ثم انتبه المسلمون على ما سبقهم فيه أعداؤهم فسابقوهم في ذلك حتى صار لهم اثر واضح وظهر من بينهم الشعراء الكبار، وقالوا الشعر الكثير الذي حفظته المصادر والمؤلفات الأولى.

ولما أصبح الشعر سلاحًا في مجابهة خصومهم غدا له أثره في تدوين السيرة النبوية المشرفة وروايتها، فقد عرف مدونوها الشعر وحفظوه، فكانوا يروون الأشعار التي

(١) ينظر البخاري: الصحيح، ٨/ ٦٣؛ ابن ماجه: السنن، ٢/ ١٢٣٦.

(٢) ينظر ابن حجر: فتح الباري، ١٣/ ١٥٦.

(٣) المرزباني: الموشح، ٨٥.

(٤) الدوري: التكوين التاريخي، ٨٧.

(٥) علي: الفصل، ٩/ ٨٤٢.

ذكرها الرجال الذين ورد ذكرهم في حوادث السيرة^(١). كما صار للشعر أثره في تدوين الأحداث التاريخية، وفي توثيق الغزوات التي خاضها المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم خلال عصر الرسالة الإسلامية، لأنه كان يشجع الشعر الذي يستفيد من المعاني الإسلامية وتمثل خط الدعوة وفي هذا توجيه ظاهر للشاعر^(٢)، في قدرته على التأثير في الأحداث.

كان للشعر أثره في نفوس أعداء المسلمين، كلما كان أثره في تعزيز معنويات المسلمين وحثهم على تثبيت أقدامهم واستمرارهم من مناجزة الأعداء، ففي سنة (٢هـ/٦٢٣م)^(٣) حدثت وقعة بدر^(٤)، فقال حسان بن ثابت الأنصاري^(٥):

لقد علمت قريش يومَ بدرٍ غداةَ الأسرِ والقتلِ الشديدِ
بأنّا حينَ تشتجر العوالي حُماةَ الحربِ بعد أبى الوليدِ
قتلنا ابنى ربيعة حين ساروا إلينا مصافى مضاعفة الحديدِ
وقربها حكيم يوم جاءت بنو النجار تخطر كالأسودِ^(٦)

يشير الشاعر إلى انتصار المسلمين على خصومهم مشركى قريش في هذه المعركة، وإلى العون الذى قدمه بنو النجار، وهم قوم الشاعر، وكيف فشا القتل والأسر في

(١) القيسي: الشعر والتاريخ، ١٨.

(٢) الجبوري، يحيى: الإسلام والشعر (منشورات مكتبة النهضة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٨٣٨هـ/ ١٩٦٤م)، ٥٧.

(٣) ابن خياط، خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري (ت، ٢٤٠هـ/ ٢٥٤م): تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، الجزء الأول (مطبعة الآداب، النجف، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م)، ١٥؛ الطبري: تاريخ، ٢/ ٤٤٦.

(٤) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء ينسب إلى بدر بن مخلد بن النصر بن كنانة، وقيل هو رجل من بني صخرة كما في ياقوت: معجم البلدان، ١/ ٣٥٧ (بدر).

(٥) صحابي شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، عمر حتى توفي سنة (٥٤هـ/ ٦٧٣م). ترجمته: ابن سلام: طبقات، ١/ ٢٢٠؛ البكري: سمط، ١/ ١٧١.

(٦) حسان بن ثابت الأنصاري (ت، ٥٤هـ/ ٦٧٣م): ديوانه، تحقيق سيد حنفي حسنين (دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م)، ٢٦٥؛ ينظر أيضًا: ابن هشام: السيرة، ٢/ ٢٦٨.

المشركين، وهذا ما جعل الشعر يوثق الحدث التاريخي، ويسهم في تدوينه وترسيخه وشيوعه في أوساط العرب، فكان وسيلة إعلامية كبيرة للرسالة الإسلامية بين قبائل العرب، فأصبحت وقعة بدر منعطفًا خطيرًا في انتشار الدين الجديد، وفي تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، وخصوصًا أن الشعر سهل الحفظ، جميل الوقع، قوى التأثير، واسع الانتشار.

ونتيجة تعرض المسلمين إلى هجاء مستمر من شعراء مشركي قريش أخذ شعراء المسلمين من الأنصار في الرد عليهم، وهجاء المشركين بوصف الشعر أداة إعلامية مهمة، وسلاحًا لفظيًا مؤثرًا، فأخذ كعب بن مالك الأنصاري^(١) يهجو المشركين ويدافع عن المسلمين فيقول:

لَعَمْرُ أَبِيكَمَا يَا بَنِي لَوْى
لَمَّا حَامَتِ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرِ
وَرَدْنَا بِنُورِ اللَّهِ بِأَمْرِ
فَمَا ظَفَرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرِ
فَلَا تَعْجَلْ أَبَا سَفِيَانَ وَارْقَبْ
بِنَصْرِ اللَّهِ رُوحَ الْقُدْسِ فِيهَا
عَلَى زَهْوٍ لَدَيْكُمْ وَإِنْتِخَاءِ
وَلَا صَبْرُوا بِهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ
مَنْ اللَّهُ أَحْكَمُ بِالْقَضَاءِ
وَمَا رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ
جِيَادَ الْحَيْلِ تَطْلَعُ مِنْ كَدَاءِ
وَمِيكَالَ فَيَا طَيْبَ الْمَلَاءِ^(٢)

تبدو الروح الإسلامية ومفردات الدين الجديد واضحة مما يبرز مدى تأثير العقيدة الإسلامية على هذه القصيدة، فقد تضمنت مفردات مثل: نور الله، وروح الله، وروح القدس.

في الجانب الآخر كان شاعر مشركي قريش عبدالله بن الزبيرى (ت، ١٥هـ/ ٦٣٦م) يبكى قتلى بدر من المشركين فيقول:

(١) صحابي توفي في خلافة علي بن أبي طالب، أحد شعراء الأنصار (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م): ترجمته الأصفهاني: الأغاني، ١٦/١٦٤؛ السيوطي: شرح، ١/٣٥٣.
(٢) كعب بن مالك الأنصاري (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م): ديوانه، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني (منشورات مكتبة النهضة، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ١٦٩؛ ينظر: ابن هشام: السيرة، ٢/٢٧٢-٢٧٣.

ماذا على بدرٍ وماذا حوله
 تركوا بُيهاً خلفهم ومنبهاً
 والحارث الفياض يبرق وجهه
 والعاصي بن منبه ذا مرة
 تنمى به أعراقه وجدوده
 وإذا بكى بالك فاعول شجوه
 حياً الإله أبا الوليد ورهطه
 من فتية بيض الوجوه كرام
 وابنى ربيعة خير خصم فئام
 كالبدر جلى ليلة الإظلام
 رُمحاً تميمًا غير ذى أوصام
 ومآثر الأخوال والأعمام
 لعلى الرئيس الماجد ابن هشام
 رب الأنام وخصمهم يسلام^(١)

تضمن هذا الشعر رثاءً للأموات، ومدحاً للأحياء، وكشفاً جانب من ظروف
 المشركين وهزيمتهم في وقعة بدر. كانت الحرب سجلاً بين المسلمين وبين
 خصومهم من مشركى قريش ومن حالفهم حتى كانت وقعة أحد^(٢) في السنة
 الثالثة^(٣) من الهجرة التى خسر فيها المسلمون أمام المشركين الذين تصاعدت
 معنوياتهم فنشط شاعرهم ابن الزبيرى بالقول:

يا غرابَ البينِ أسمعْت فقل
 إن للخير وللشر مدي
 والعطيات خِساسٌ بينهم
 كلُّ عيشٍ ونعيمٍ زائل
 أبلغنا حسانَ عنى آية
 إنما تنطقُ شيئاً قد فعل
 وكلا ذلك وجهٌ وقبل
 وسواءٌ قبرٌ مثيرٌ ومقبل
 ويناتُ الدهرِ يلعبُ بكل
 فقريضُ الشعرِ يشفى ذا الغل^(٤)

ثمة إشارة واضحة إلى عقيدة التشاؤم من الغراب ونذره بالشؤم، وإشارة أخرى
 إلى شاعر الرسول (صلى الله عليه وسلم) حسان بن ثابت، وهى بداية لهجوم ساخن

(١) ابن الزبيرى: شعره، ٤٧؛ ابن هشام: السيرة، ٢/٢٦٥.

(٢) جبل بينه وبين المدينة قرابة ميل في شمالها. ياقوت: معجم البلدان، ١/١٠٩ (أحد).

(٣) ابن خياط: تاريخ، ١/٢٦؛ الطبرى: تاريخ، ٢/٤٩٩.

(٤) شعره، ٤١.

يكشف عن تصاعد معنويات المشركين بعد وقعة أحد وإحساسهم بنشوة الانتصار إلى أن يقول في هذه القصيدة أيضاً:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهَدُوا
حِينَ حَكَتْ بِقُبَاءٍ بِرُكْهَهَا
ثُمَّ حَفَّوْا عِنْدَ ذَاكُمُ رَقِصًا
فَقَاتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ
جَزَعُ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ
وَاسْتَمَرَ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَشَلِ
رَقِصَ الْخَفَّانِ يعلو فِي الْجَبَلِ
وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرِ فَاَعْتَدَلُ^(١)

وبالرغم من خسارة المسلمين في وقعة أحد وصعود معنويات المشركين بعدها، إلا أن شعراء المسلمين لم يشبه ذلك من الرد على خصومهم لشدة عزيمة المسلمين، والكشف عن بلائهم في القتال للتقليل من قيمة نصر أعدائهم، فأجاب حسان بن ثابت ابن الزبيرى قائلاً:

ذَهَبَتْ بِابْنِ الزُّبَيْرِ وَقَعَةٌ
وَلَقَدْ نِلْتُمْ وَنَلْنَا مِنْكُمْ
إِذْ شَدَدْنَا شِدَّةَ صَادِقَةٍ
إِذْ تَوَلَّوْنَا عَلَى أَعْقَابِكُمْ
نَضَعُ الْخَطِيئَةَ فِي أَكْتَافِكُمْ
يَخْرِجُ الْأَكْدَرُ مِنْ أَسْتَاهِكُمْ
وَشَدَخْنَا فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ
وَأَسْرْنَا مِنْكُمْ أَمْثَالَهُمْ
ضَاقَ عَنَا الشُّعْبُ إِذْ نَزَعُهُ
كَانَ مِنَّا الْفَضْلُ فِيهَا لَوْ عَدَلُ
وَكَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا دُولُ
فَاجْأْنَاكُمْ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ
هَرَبًا فِي الشُّعْبِ أَشْبَاهِ النَّمْلِ
حَيْثُ نَهَوَى عَلَّاءُ بَعْدَ نَهْلِ
كَسِلَاحِ النَّيْبِ يَأْكُلُنَ الْعَصْلُ
مِنْكُمْ سَبْعِينَ غَيْرَ الْمُنْتَحِلِ
فَانصَرَفْتُمْ مِثْلَ إِفْلَاتِ الْحَجَلِ
وَمَلْنَا مِنْهُمْ الرَّجْلُ^(٢)

تمخض هذا التهاجى بين شعراء المسلمين وخصومهم من شعراء مشركى قريش عن انتعاش شعر النقائض الذى يقوم على المناقضة، أى ينقض الشاعر الآخر ما قاله

(١) نفسه، ٤٤٢؛ ابن هشام: السيرة، ٣/٦٩-٧٠.

(٢) ديوانه، ٩٣-٩٤؛ ابن هشام: السيرة، ٣/٦٩-٧٠.

الأول^(١). كان بذلك ظهور النقيضة، وهى قصيدة يرد بها الشاعر على قصيدة لخصم له فينقض معانيها عليه: يقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح على نفسه، وتكون النقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها^(٢). فكانت هذه النقائض، وما تلاها بين شعراء العصر الأموي استمراراً للهجاء القبلي عند شعراء العرب قبل الإسلام، والتي كان "كان يعثها عادة خلاف بين قبيلتين أو أسرتين"^(٣)، فكانت النقائض موضع اهتمام المجتمع العربي "لما تؤديه من دور في إثبات تفوق الشاعر على خصمه، والفوز بإعجاب المجتمع"^(٤). فكان شعراء مشرقي قریش ومن والاهم يهجون المسلمين، فيرد عليهم شعراء الأنصار ناقضين هجاءهم، فكان ذلك أول عهد حقيقى للنقائض فى الشعر العربى والتي ستزدهر فى العصر الأموى ازدهاراً تاماً^(٥) بعد أن شهد مقدماته الأولى فى صراعات شعراء القبائل، فكانت النقائض ذات أثر واضح فى تدوين الأحداث التاريخية لأنها تقوم على مهاجمة المتناقضين ومحاولة كل جانب إثبات وجهة نظره، وتقويض مبادئ وأهداف خصمه، هذا فضلاً عما حملته من مادة تاريخية ذات اتجاهين مختلفين. بيد أن ما يؤاخذ عليها أنها تقوم على الهجاء ومحاولة كل جانب النيل من صحة آراء الجانب الآخر مما يجعل الحقيقة ذات وجهين متضارين، وقد استفاد هذا النمط الشعرى فائدة مثلى من المحفزات والصراعات إذ حاول كل طرف أن يقنع المجتمع بصحة رأيه وجدوى تعرضه لخصمه، وهو فى الوقت نفسه أنعش انتشارها وقدرتها على التأثير.

وثق رثاء شهداء المسلمين فى هذه الواقعة الأحداث التاريخية، وأسهم فى انتشار

(١) ابن منظور: لسان العرب، ٣/ ٧٠٥ (نقض).

(٢) فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربى، الجزء الأول (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨ م)، ٣٦١.

(٣) نفسه، ١/ ٣٦٣.

(٤) حودى، جعفر صادق: النقائض فى العصر الأموي "دراسة فنية"، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة بغداد (ربيع الأول ١٤١٥هـ/ آب ١٩٩٤م)، ٤٣.

(٥) إبراهيم، طه أحمد: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (دار الحكمة، بيروت، دون تاريخ)، ٢٦.

مبادئ المسلمين، ورسخ فكرة الاستشهاد التي كان المسلمون يقاتلون فيقتلون من أجل بلوغها للفوز بالجنة، كما في قول كعب بن مالك:

نشجت وهل لك من منشج
تذكر قوم أتانى لهم
فقلبك من ذكرهم خافق
وقتلاهم فى جنان النعيم
بما صبروا تحت ظل اللواء
غداة أجابت بأسياها
وأشياغ أحمد إذ شايعوا
فما برحوا يضربون الكمأة
وكنت متى تذكر تلجج
أحاديث فى الزمن الأعوج
من الشوق والحزن والمنضج
كرام المداخل والمخرج
لواء الرسول بنى الأضوج
جميعاً بنو الأوس والخزرج
على الحق ذى النور والمنهج
ويمضون فى القسطل المرهج^(١)

تشير القصيدة على الصراع العقائدى بين الجانين، وعلى إسناد قبيلتى الأوس والخزرج لمن هاجر مع النبى (صلى الله عليه وسلم)، وعلى طبيعة عقائد الطرفين فى النظرة إلى الحياة الآخرة.

كان فى رثاء عبدالله بن رواحة^(٢) (ت، ٨هـ / ٦٢٩م) لحمزة بن عبدالمطلب (ت، ٣هـ / ٦٢٤م) محاولة لاسترجاع أحداث معركة بدر، فأسهم فى توثيق حدثى بدر وأحد فى قصيدة واحدة مما يبرز الرؤية الشمولية للصراع، وتصميم الشعراء على الاستمرار فى الدفاع عن عقيدتهم بالرغم من تزايد التضحيات، ومما قاله:

بكت عينى وحق لها بكاهها
على أسد الإله غداة قالوا
أصيب المسلمون به جميعاً
وما يغنى البكاء ولا العويل
أحمزة ذاكم الرجل القليل؟
هناك، وقد أصيب به الرسول

(١) ديوانه، ١٨٧؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ٧٠-٧١.

(٢) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري صحابي استشهد فى موقعة مؤتة سنة (٨هـ / ٦٢٩م). ترجمته: ابن سلام: طبقات، ١/ ٢١٥؛ السيوطي: شرح، ١/ ٢٨٨.

وَأَنْتَ الْمَاجِدَ الْبَرُّ الْوَصُولُ
مَخَالِطُهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ
فَكُلُّ فِعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ
بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطِقُ إِذْ يَقُولُ
فَبَعْدَ الْيَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ^(١)

أَبَا يَعْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ
عَلَيْكَ سَلَامٌ رَبُّكَ فِي جِنَانِ
أَلَا يَا هَاشِمَ الْأَخْيَارِ صَبِيرًا
رَسُولُ اللَّهِ مِصْطَبٌ كَرِيمٌ
أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي لَوْلَا

وكما يشير إلى مصير الشهيد حمزة بن عبدالمطلب، وهو الخلود في جنات النعيم، يعيد للأذهان نتائج وقعة بدر وما تشكله من منعطف كبير في الرسالة الإسلامية، وكيف كانت مقاتل مشركي قريش فخرًا للمسلمين. فيقول:

غَدَاةَ أَتَاكُمْ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ
عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةٌ تَجْوُلُ
وَشِيْبِهِ عَضُّهُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ
وَفِي حَيْزِ زَمَوِ لَدُنْ نَبِيلُ
فَفِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا فُلُولُ^(٢)

نَسَيْتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلْبَيْبِ بَدْرِ
غَدَاةَ ثَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيْعًا
وَعُتْبَةُ وَابْنُهُ خِرًّا جَمِيْعًا
وَمَتْرَكَنَا أُمِّيَّةً مَجْلَعًا بَا
وَهَامَ بَنِي رَيْبِعَةَ سَائِلُوهَا

الشاعر يُذَكِّرُ المشركين بأن انتصارهم في أحد لا يوازي هزيمتهم في بدر ومقتل كبار فرسانهم من أمثال عتبة بن ربيعة (ت، ٢هـ/٦٢٣م) وابنه الوليد وأخيه شيبه، مما يؤكد على أهمية الشعر في تدوين الحدث التاريخي، وعلى كون الشعر سلاحًا من أسلحة الدعوة الإسلامية، فكان أحد أدوات المعركة بين النبي^(ص) صلى الله عليه وسلم وخصومه المشركين.

كانت غزوة الخندق في شوال سنة (٥هـ/٦٢٦م)^(٤) تحديًا مصيريًا للمسلمين،

(١) ابن رواحة، عبدالله (ت، ٨هـ/٦٢٩م): ديوانه، دراسة وتحقيق وليد قصاب (دار العلوم للطباعة والنشر، مطبعة المتوسط، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ١٤٢؛ ابن هشام: السيرة، ٣/٨٨.

(٢) ابن رواحة: ديوانه، ١٣٣.

(٣) الجبوري: الإسلام والشعر، ٤٣.

(٤) ابن هشام: السيرة، ٣/١٢٧؛ الطبري: تاريخ، ٢/٥٦٤.

وتعبيراً عن تعبئة عسكرية متقدمة في حصار المدن، فكان الشعر وثيقة لهذا الحدث الجديد في حياة العرب المسلمين بما يكشف عن قدراتهم القتالية في مجابهة التحديات التي تحيط بهم، فهذا حسان بن ثابت يقول عن هذه الغزوة:

عرفت ديار زينب بالكثيب	كخَطُّ الوَحى فى الرِّقِّ القشيب
تعاورها الرياح وكُلُّ جَوْنٍ	من الوسمى منهَمِر سَكُوبٍ
فأمسى رسمها خَلْقًا وأمست	يَبَابًا بعدَ ساكنها الحبيب
فَدَعُ عَنْكَ التَّدْكَرُ كُلَّ يَوْمٍ	وَرُدُّ حَرَارَةِ الصَّدْرِ الكئيب
وخبَّرِ بالذى لا عيبَ فيه	بصدقٍ غيرَ أخيرِ الكذوب
بما صَنَعَ المليكُ غداةَ بَدْرِ	لنا فى المشركينَ من النَّصيب
غداةَ كأنَّ جَمَعَهُمُ جِراءُ	بَدَتِ أركائهُ جنحَ العُروب
فلاقيَناهُمُ منا يَجْمَعُ	كأسدِ الغابِ من مُردٍ وشيب
أمامَ محمَّدٍ قد آزورُو	على الأعداءِ فى وهجِ الحروب
بأيديهمُ صوارِمُ مُرهفاتُ	وكُلُّ مُجربٍ حاضى الكُعب
بنو الأوسِ الغطاريفِ آزرتها	بنو النَّجارِ فى الدينِ الصَّليب ^(١)

وفي الجانب الآخر عند مشرقي قريش كان شاعرهم عبدالله بن الزبير يشير إلى وقعة الخندق، واصفًا مسيرة معاشرهم بأجمعهم من أنصاب مكة إلى يثرب، حينما يصف خيلهم، وكيف وردوا المدينة وقد ارتدوا أسلحتهم للموت قاصدين النبي، صلى الله عليه وسلم، وكيف كانوا يدخلونها لولا الخنادق التي اضطرتهم إلى الرحيل، ولولا ذلك لتركوهم للطيور والذئاب، فهو يقول:

واذكُرْ بلاءَ معاشِرِ واشكُرْهُمُ	ساروا بأجمعهم من الأنصاب
أنصابِ مَكَّةَ عامدين يثربَ	فى ذى غياطلٍ جَحْفَلِ جبجباب

(١) ديوانه، ٤٣-١٣٥.

فى كلِّ نَشْرِ ظَاهِرٍ وَشِعَابِ
 قُبِّ البُطُونِ لَوَاحِقِ الأَقْرَابِ
 كَالسَّيْدِ يَادِرْ غَفْلَةَ الرُّقَابِ
 فِيهِ وَصَخْرَ قَائِدِ الأَحْزَابِ
 غَيْثُ الفَقِيرِ وَمَعْقِلُ الهُرَابِ
 لِلْمَوْتِ كُلِّ مُجْرَبٍ قُضَابِ
 وَصَحَابُهُ فِي الحَرْبِ خَيْرُ صَحَابِ
 كِدْنَا نَكُونُ بِهَا مَعَ الحُجَّابِ
 قَتَلَى لِطَيْرِ شُعْبِ وَذئَابِ^(١)

يَدْعُ الحُزُونَ مَنَاهِجًا مَعْلُومَةً
 فِيهِ الجِيَادُ شَوَازِبٌ مَجْنُونَةٌ
 مِنْ كُلِّ سَلْهَبَةٍ وَأَجْرَدٌ سَلْهَبِ
 قَرْمَانٍ كَالْبَدْرَيْنِ أَصْبَحَ فِيهِمَا
 جَيْشٌ غُيْنَةٌ قَاصِدٌ بِلَوَائِهِ
 حَتَّى إِذَا وَرَدُوا المَدِينَةَ وَارْتَدُوا
 شَهْرًا وَعَشْرًا قَاهِرِينَ مُحَمَّدًا
 نَادُوا بِرَحْلَتِهِمْ صَيِّحَةً قَلْتُمْ
 لَوْلَا الحِنَادِقُ غَادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ

ولأن الشعر وسيلة إعلامية مهمة، فإن أحد شعراء النبي صلى الله عليه وسلم، كعب بن مالك الأنصارى نقض هذه القصيدة على قافية القصيدة السابقة وروياها.

وقد عبرت هذه النقائض في هذه المرحلة عن بدء فكرة التناظر والحوار بين عقيدتين متعارضتين، كل منهما تحمل فكرًا ودينا وقيما تختلف عن الأخرى، فهذا ما يقوله كعب بن مالك لسان حال المسلمين وهو يرد على شاعر المشركين ابن الزبيرى:

مِنْ خَيْرِ نَحْلَةٍ رَبَّنَا الوَهَّابِ
 حُمِّ الجُدُوعِ غَزِيرَةِ الأَحْلَابِ
 لِلجَارِ وَابْنِ العَمِّ وَالمُتَّابِ
 عَلَفَ الشَّعِيرِ وَجِزَّةَ المَقْضَابِ
 جَرْدُ المُتُونِ وَسَائِرِ الآدَابِ
 فَعَلِ الضَّرَاءِ تُرَاحَ لِلكَلَّابِ

أَبْقَى لَنَا حَدَثُ الحُرُوبِ بِقِيَّةً
 بِيضَاءَ مَشْرِفَةِ الدُّرَا وَمَعَاظِنَا
 كَاللُّوبِ يَبْذُلُ جَمُّهَا وَحَفِيلُهَا
 وَنَزَائِعًا مِثْلَ السَّرَاجِ نَمَابِهَا
 عَرَى الشَّوَى مِنْهَا وَأَرْدَفَ نَحْضِهَا
 قُودًا تُرَاحَ إِلَى الصَّيَاحِ إِذَا غَدَت

(١) شعره، ٢٩-٣٠؛ ابن هشام: السيرة، ٣/١٥٨-١٥٩.

حوش الوحوش مطارة عند الوغى عُيس اللقاء مبينة الإنجاب
 علفت على دعة فصارت يدنا دُخس البضيع خفيفة الأقباب
 يغدون بالزحف المضاعف شكه ويمترصات في الثفاف صياب^(١)

يرد الشاعر كعب بن مالك على خصمه المشرك فينقض أفكاره مستخدماً القافية ذاتها، مستفيداً من ألفاظ القرآن ومعانيه، فكان الشعر صوتاً لإيصال أفكار الدين الجديد بين القبائل التي لم تكن تسمع عن الإسلام شيئاً إلا عن طريق ما يصل إليها من الشعر^(٢). فكان شعراء الإسلام من المهاجرين والأنصار أكثر تعبيراً عن جوهر الحدث من خلال النظرة المتروية والفاحصة لعملية الصراع بين الإيمان والشرك، عبر رؤية مترعة بالروح الإسلامية، من دون التخلي عن نزعة الافتخار بفروسية جند الإسلام وصفاتهم الإنسانية؛ وبهذا أسهم الشعر في توثيق جوانب من الحياة الواقعية بما يكشف عن طبيعة حياتهم ونظرتهم للموت وقدرتهم على مناجزة عدوهم، لذا كان للشاعر وشعره أثرهما في الحدث من خلال المشاركة الفعلية في المعركة، ففي وقعة مؤتة^(٣) التي حدثت سنة (٨هـ/ ٦٢٩م)^(٤) قال ابن رواحة:

جلبنا الخيل من أجأ وفرع تُغر من الحشيش لها الغكومُ
 خدوناها من الصوان سبتاً أزل كأن صفحته أديمُ
 أقامت ليلتين على معانٍ فأعقب بعد فترتها جمومُ
 فرحنا والجياد مسومات تنفس في مناخرها السمومُ
 فلا وأبى مآب لنايتها وإن كائت بها عرب وروم^(٥)

وحين أخذ ابن رواحة الراية^(٦)، وقاد جيش مؤتة، كان رجزه في أثناء القتال

(١) ديوانه، ١٧٩-١٨٠؛ ابن هشام: السيرة، ٣/ ١٦٠.

(٢) العاني، سامي مكّي: الإسلام والشعر (عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٦٧.

(٣) مؤتة، بالهمزة، من مشارف الشام كما في ياقوت: معجم البلدان، ٥/ ٢١٩-٢٢٠ (مؤتة).

(٤) ابن خياط: تاريخ، ١/ ٤٩؛ الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٦.

(٥) ديوانه، ١٤٩؛ ابن هشام: السيرة، ٤/ ٩-١٠.

(٦) ينظر الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٦.

جزءًا من تفاصيل الحدث التاريخي، وتعبيرًا عن الإصرار على مبادئ العقيدة الإسلامية، وإيثار الشهادة على الحياة، فكان يقول:

أَقَسَمْتُ يَا نَفْسُ التَّنَزُّلُ
طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهِنَّ
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّهْنَ
مَالِي أَرَأَيْكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ
قَدْ طَالَمَا قَد كُنْتُ مَطْمَئِنَّةً
هَلْ أَنْتَ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةِ
جَعْفَرٍ مَا أَطْيَبَ رِيحَ الْجَنَّةِ^(١)

كان لحسن العاقبة عند المسلمين، وإحساسهم بأن ثواب الشهداء هو الجنة حافزًا قويًا لاندفاع ابن رواحة وقتاله المستميت، وهو يخاطب من سبقه من شهداء معركة مؤتة، فكان يجذب لنفسه ريح الجنة، فقاتل حتى لقي ربه شهيدًا، فلما وصلت الأخبار إلى المدينة رثى حسان بن ثابت شهداء مؤتة بقوله:

عَيْنُ جُودِي بَدْمَعِكَ الْمَنْزُورِ وَاذْكَرِي فِي الرِّخَاءِ أَهْلَ الْقُبُورِ
وَاذْكَرِي مُؤْتَةَ وَمَا كَانَ فِيهَا يَوْمَ رَاحُوا فِي وَاقِعَةِ التَّغْوِيرِ
حِينَ وَلَّوْا وَغَادَرُوا ثُمَّ زِيدًا نِعْمَ مَا أَوَى الضَّرِيكَ وَالْمَأْسُورِ
جِبُّ خَيْرِ الْأَنْامِ طُرًّا جَمِيعًا سَيِّدِ النَّاسِ حُبُّهُ فِي الصُّدُورِ
ذَاكُمْ أَحْمَدُ الَّذِي لَا سِوَاهُ ذَاكَ حُزْنِي لَهُ مَعًا وَسُرُورِي
ثُمَّ جُودِي لِلخَزْرَجِيِّ بَدْمَعِ سَيِّدًا كَانَ ثُمَّ غَيْرَ نَزُورِ
قَدْ أَتَانَا مِنْ قَتْلِهِمْ مَا كَفَانَا فَبِحُزْنٍ نَبِيتُ غَيْرَ سُرُورِ^(٢)

يرثى الشاعر شهداء مؤتة، فيشير إلى استشهاد زيد بن حارثة (ت، ٨هـ/

(١) ديوانه، ١٥٣.

(٢) ديوانه، ٢٢١-٢٢٢؛ ابن هشام: السيرة، ٤/٢٠-٢١.

٦٢٩م)، كما أشار ابن رواحة في رجزه إلى استشهاد جعفر بن أبي طالب (ت، ٨هـ/ ٦٢٩م)، فكان الشعر وثيقة تكشف عن التاريخ الحقيقي لوفيات من شارك في الغزوات والمعارك.

وعندما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم، إلى الرفيق الأعلى سنة (١١هـ/ ٦٣٢م)^(١) استنهض حسان بن ثابت قواه الشعرية، وهو الشاعر الذي جعل شعره صوتاً مدوياً في سبيل الإسلام، فرثى الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله:

أَلَيْتُ حَلْفَةَ بَرٍّ غَيْرِ ذِي دَخَلٍ	مِتَّى آلِيَةَ بَرٍّ غَيْرِ إِفْنَادٍ
بِاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أَنْثَى وَلَا وَضَعْتُ	مِثْلَ النَّبِيِّ رَسُولَ الرَّحْمَةِ الْهَادِي
وَلَا مَشَى فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ	أَوْلَى بَدْمِهِ جَارٍ أَوْ بِمِيعَادِ
مَنْ الَّذِي كَانَ نَوْرًا يُسْتَضَاءُ بِهِ	مُبَارَكِ الْأَمْرِ ذَا حَزْمٍ وَإِرْشَادِ
مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأُولَى سَالِفُوا	وَأَبْدَلَ النَّاسِ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ إِيَّيْ كُنْتُ فِي نَهْرٍ	جَارٍ فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْمَفْرَدِ الصَّادِي
أَمْسَى نَسَاؤُكَ عُطَّلْنَ الْبُيُوتَ فَمَا	يَضْرِبْنَ فَوْقَ عُرَى سِتْرِ بِأَوْتَادِ
مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ الْمُسُوحَ وَقَدْ	أَيَّقْنَ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النُّعْمَةِ الْبَادِي ^(٢)

يبدو أثر وقع الحدث النفسي واضحاً على الشاعر، لذا أطرى فضائل المرثى فدمج بين أسلوب الرثاء في إيلاء مظاهر الحزن اهتمامه وفي بيان مناقب شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وميزة رسالته في توكيد رسالات الأنبياء، فوصفه بأنه خير البرية وأبدل الناس بالمعروف، بينها وصفه كعب بن مالك في رثائه له بأنه خير من حملت ناقة، وأتقى البرية، وخير الأنام حين قال:

يَا عَيْنُ فَبِكَيْ بَدْمِعِ ذَرَى	خَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالْمِصْطَفَى
وَيَكَّى الرَّسُولَ وَحُقَّ الْبُكَاءُ	عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللَّقَا

(١) ابن خياط: تاريخ، ١/٥٨؛ الطبري: تاريخ، ٣/١٩٩.

(٢) ديوانه، ٢٠٧-٢٠٨؛ ابن هشام: السيرة، ٤/٢٣٦.

وأنتقى البرية عند التقى
 وخير الأنام وخير اللها
 م من هاشم ذلك المرتجى
 وكان سراجاً لنا فى الدجا
 ونوراً لنا ضوءه قد أضا
 ونجى برحمته من لظاً^(١)

على حير من حملت ناقة
 على سيد ماجد جفلى
 له حسب فوق كل الأنا
 نخص بما كان من فضله
 وكان بشيراً لنا منذراً
 فأقذنا الله فى نوره

ينطلق الشاعر فى رثائه للنبي (صلى الله عليه وسلم) من المفاهيم الإسلامية التى أشاعتها لغة القرآن الكريم بما يوصل بين جسامة الحدث ووقع القصيدة لأنهما ينبثقان من أرض إسلامية واحدة رسختها قوة تأثير الرسالة، فكان الرثاء يجمع بين فكرة الاصطفاء فى النبوة ونبيل النسب، مما يعنى أن الشاعر زواج بين الافتخار بالنسب عند شعراء قبل الإسلام والاعتزاز الكبير بالدين الجديد، وبشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) التى رأت فى الشعر خير عون ضد الأعداء.

عصر الخلفاء الراشدين

تبت الرسول (صلى الله عليه وسلم) أركان الدولة العربية الإسلامية فى شبه جزيرة العرب بعد أن وضع أصولها وبنى قواعدها وأوضح معالمها، فاتخذ من يثرب عاصمة لدولته التى سميت بمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ومنها انتشر الإسلام وتوسعت دولته بعد أن حمل أعباءها خلفاؤه من بعده، فحرروا الأمصار وفتحوا البلدان وساهموا فى إعلاء دين الإسلام فرادى وجماعات فى الحرب والسلام.

كان للخلفاء الراشدين مواقف مع الشعر، فقد روى شعر لأبى بكر وعمر وعثمان وعلي^(٢) (رضى الله عنهم)، كما كان عمر بن الخطاب يقول: "الشعر علم قوم

(١) ديوانه، ١٧٣.

(٢) ابن رشيقي: العمدة، ١/٣٢-٣٤.

لم يكن لهم علم أعلم منه"، وكان علي بن أبي طالب يقول: "الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم"^(١). مما يعنى أن الشعر شكل جزءاً من ثقافة مرحلة عاشوها وظلوا يرون فيه علماً ومؤثراً على حياة العرب بعد الإسلام. وكانت لهم مواقف مع الشعراء حتى أن حسان بن ثابت خاطب عمر مرة عندما نهره عن قول الشعر بقوله: "دعنى عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك، فقال عمر: صدقت"^(٢). ولعل ذلك هو الذى دفع بعمر إلى الكتابة إلى أبي موسى الأشعري: "مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى، ومعرفة الأنساب"^(٣).

وعندما قدم الزبرقان بن بدر^(٤) إلى أبي بكر الصديق (١١-١٣هـ/٦٣١-٦٣٤م) فى خلافته، وهو يحمل معه أموال الصدقات فى سنة ١١هـ/٦٣٢م^(٥) قال:

وفيت بأزواد الرسول وقد أبت	سُعاة فلم يردد بعيراً مجيرها
معاً ومنعناها من الناس كلهم	تراها الأعدى حولنا ما تضيئها
وأديتها من أن تُضام بدمتى	مَحَانيق لَمْ تُدرَس رُكوباً ظهورها
أردتُ بها التقوى ومجد حديثها	إذا عُصبة سَامى قبلى فخورها
وأتى لعمن قوم إذا عُدَّ سعيهم	أبى المخزبات حَيُّها وقبيرها

(١) نفسه، ١/٢٧-٢٨.

(٢) نفسه، ١/٢٨.

(٣) نفسه.

(٤) هو الحصين بن بدر التميمي، شاعر مخضرم محسن. ينظر ترجمته: الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت، ٣٧٠هـ/٩٨١م): المؤلف والمختلف، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ١٨٧؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت، ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، الجزء الأول (مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ)، ٥٤٣.

(٥) الطبري: تاريخ، ٣/٣٠٥.

صغارهم لم يطيعوا وكبارهم أصيبت مناياها عفاً صُدورها^(١)

ينطلق الشاعر من خلال امتزاج الاستجابة الذاتية بالحدث، للتعبير عن موقفه كإنسان شعر بتواصل عهد الخليفة الأول بعصر الرسالة الإسلامية، مشيراً إلى أنه جاء بحق الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي شرعه.

وفي سنة (١٢هـ/ ٦٣٣م)^(٢) هزم القعقاع^(٣) الفرس في وقعة حصيد^(٤) فقال:

ألم يَئنه عنا حتى أرس أننا
وإنا أناسٌ قد نعوذُ خيلنا
ورُوز قتلنا حيث أرجف خدّه
تركنا حصيداً لا أنيس يجره
وأنى لراجى أن تلاقى جموعهم
ألا أبلغاً أسماءً أن جيلها
غداةً صبحنا في حصيدةٍ جموعهم
ورُوزاً أصابت بالمنايا فأوجعت
منعناهم من ربعمهم بالصوارم
لقاءً الأعادي بالحتوف الفواطم
وكلُّ رئيسٍ زارنا بالعظامم
وقد شفيت أربابه بالأعاجم
غُدياً المنكرات الصوارم
قضى وطراً من روزى الأعاجم
بهنديّة تفرى فراخ الجماجم
سيوفُ بنى عمرو ياحدى العظامم^(٥)

واكبت هذه القصيدة معارك تحرير العراق، والتي أصبحت إحدى الوثائق التاريخية التي "لها قيمتها في تأكيد الوقائع وسلامة الأحداث وقدرة الشعر على تصوير التاريخ. وتثبيت أحداثه وتصويره لحياة المحررين ومشاعرهم"^(٦) الإنسانية

(١) أبو عبيدة: النقائص، ٢/٦١٧؛ الطبري: تاريخ، ٣/٣٠٥.

(٢) الطبري: تاريخ، ٣/٣٨٠.

(٣) القعقاع بن عمرو التيمي (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م) ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت، ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبدالوهاب فايد الجزء الرابع (دار الشعب، القاهرة، دون تاريخ)، ٤٠٩.

(٤) حصيد: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة. ياقوت: معجم البلدان، ٢/٢٦٦ (حصيد).

(٥) القعقاع بن عمرو التيمي (ت، نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م): شعره ضمن كتاب: شعراء إسلاميون، تحقيق نوري حمودي القيسي (منشورات مكتبة النهضة العربية - عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ٤٩.

(٦) القيسي: الشعر والتاريخ، ٥٨.

والقتالية، فكانت واضحة المعانى وثقت مقتل شخصيتين من شخصيات رجال العدو وهما "روزبة و"روزمهر"^(١).

حين توفي الخليفة أبو بكر الصديق سنة (١٣هـ/ ٦٣٤م) رثاه حسان بن ثابت فقال:

إذا تذكرتُ شجواً من أخى ثقةٍ فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أنقاها وأعدلها بعد النبي وأوفاهما بما حملا
والثانى الصادق المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرُسلا
عاش حميداً لأمر الله متبعاً يهذى صاحبه الماضى وما انتقلا^(٢)

يبدو على هذه الأبيات أنها متقاربة في الدلالة والمعنى مع ما جاء في رثاء حسان للنبي (صلى الله عليه وسلم)، مما يؤكد استمرارية الحدث التاريخي وتواصله، وبأن ثمة ترابطاً بين صاحب الرسالة الأول وبين من جاء بعده حين أخذ على عاتقه مسؤولية المواصلة في تنفيذ مبادئ تلك الرسالة على وفق المعيار الذى جاءت به وأرادته.

كان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٣م) عازماً على تثبيت دعائم الدولة وتعبئة الجيوش لتحرير الأقاليم المجاورة لدولته، فابتدأ مع إمبراطورية الفرس بمعارك متواصلة كانت محدودة فى بدايتها ثم صارت مشهودة فى وقائعها بعد ذلك. ففى معركة القادسية التى حدثت سنة (١٤هـ/ ٦٣٥م)^(٣) أسهم الشعر فى توثيق الأحداث، وفى بيان طبيعة الالتحام القتالى العنيف الذى التحمه المسلمون مع أعدائهم الفرس، والذى آل إلى تقويض هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ودحرها وتحرير العراق وفتح

(١) الطبري: تاريخ، ٣/ ٣٨٠.

(٢) ديوانه، ٢١١-٢١٢.

(٣) الطبري: تاريخ، ٣/ ٤٨٠.

خراسان وغيرها من الأقاليم المنضوية تحتها، وفي هذا الشأن يقول^(١) طليحة بن خويلد:

طرقت سليمى أرحل الركبي
إنى اهتديت بسبب سهبي
بالغارة الشعواء والحربي
إنى كفلت سلام بعدكم
نازلتم بمهندي عَضْبِ
لو كنت يوم القادسية إذ
أبصرت شداتي ومنصرفي
واقامتني للطعن والضرب^(٢)

فهذا طليحة بن خويلد يوثق الأحداث عندما يوضح في شعره ملامح المعركة ويرسم صورة للترابط بين مكان المعركة وما يجري فيها من فعاليات وأدوات قتالية.

وعن تحرير بيت المقدس في سنة (١٥هـ/ ٦٣٦م)^(٣) يقول زياد بن حنظلة^(٤):

تذكرت حرب الروم لما تطاولت
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا
مَسِيرَةُ شَهْرٍ يَبْنُهُنَّ بِلَابِلَةَ
وإذ أرتبون الروم يحمي بلاده
يُحَاوِلُهُ قَرْمٌ هُنَاكَ يَسْأَجِلُهُ
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها
سَمَا بِجُنُودِ اللَّهِ كَيْمَا يُصَاوِلُهُ
فلما أحسوه وخافوا صواله
أَتَوْهُ قَوْلُوا أَنْتَ مَعْنَى نَوَاصِلُهُ
وَأَلَقْتَ إِلَيْهِ الشَّامَ أَفْلَادَ بَطْنِهَا
وَعَيْشًا خَصِيْبًا مَا تُعَدُّ مَأْكِلُهُ
أَبَاحَ لَنَا مَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ
مَوَارِيثَ أَعْقَابِ بَنَاتِهَا قَرَامِلُهُ

(١) هو طليحة بن خويلد الأسدي شهد معركة القادسية. ترجمته: ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي (ت، ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م): الاستيعاب في أسماء الأصحاب بهامش كتاب الإصابة، الجزء الثاني (مط السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ)، ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت، ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): فتوح البلدان، تعليق ومراجعة رضوان محمد رضوان (المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٩م)، ٢٦١.

(٣) الطبري: تاريخ، ٦١٢/٣.

(٤) زياد بن حنظلة التميمي. ترجمته: ابن حجر: الإصابة، ٥٥٧/١.

وَكَمْ مُثْقَلٍ لَمْ يَضْطَلِعْ بِاحْتِمَالِهِ تَحْمَلُ عِبْنًا حِينَ شَأَلَتْ شَوَائِلَهُ^(١)

يشير هذا الشعر إلى تحرير بيت المقدس، وبلاد الشام، ومسيرة الخليفة عمر إليها، كما يشير إلى المعركة بين المسلمين مع (أردلبون) الروم، فأصبح الشعر وثيقة تسهم في حفظ الأحداث إلى جانب مصادرها التاريخية.

كانت معارك التحرير تتواصل بقوة وتصميم ففي وقعة جلولاء^(٢) التي حدثت سنة (١٦هـ/٦٣٧م)^(٣) فقال هاشم بن عتبة^(٤) الذي زحف عليها من المدائن في اثني عشر ألفاً:

يَوْمُ جُلُولَاءَ وَيَوْمُ رُسْتَمَ وَيَوْمُ زَحْفِ الْكُوفَةِ الْمُقَدَّمِ
وَيَوْمُ عَرَضِ النَّهْرِ الْمُحْرَمِ مِنْ بَيْنِ أَيَّامِ خَلَوْنَ صُرْمِ
شَبِيئَ أَصْدَاغِي فَهَنْ هُرْمِ مِثْلُ نَفَامِ الْبَلَدِ الْمُحْرَمِ^(٥)

يحفظ هذا الشعر مكان الواقعة وقائد جيش الفرس، فيتابع زحف الجيوش وهي تعبر النهر، وما لاقاه الجيش الإسلامي الزاحف في مسيرته خلال الأيام التي سبقت التماس بين الجيشين، وقد شهد القعقاع هذه الواقعة فقال:

وَنَحْنُ قَتَلْنَا فِي جُلُولَا أَكْبَرًا وَمَهْرَانِ إِذْ عَزَّتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ

(١) الطبري: تاريخ، ٦١٢/٣-٦١٣.

(٢) جلولاء: طسوج في طريق خراسان قرب خانقين، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا. ياقوت: معجم البلدان، ١٥٦/٢ (جلولاء).

(٣) ابن خياط: تاريخ، ١٠٨/١ وفيه حدثت سنة ١٧هـ؛ الطبري: تاريخ، ٢٥/٤.

(٤) هاشم بن عتبة بن ابي وقاص المعروف بالمرقال، قتل مع علي بن أبي طالب في صيف سنة ٣٧هـ/٦٥٧م. ترجمته: ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد البستي التميمي (ت، ٣٥٤هـ/٩٦٥م): الثقات، إشراف شرف الدين أحمد، الجزء الثالث (مطبعة مجالس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدين - الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ٤٣٧؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد سعيد بسيوني زغلول، الجزء الأول (دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ٢٨).

(٥) الطبري: تاريخ، ٣٣/٤-٣٤.

ويوم جلولاء الوقية أفنيت بنو فارس لما حوتها الكتائب^(١)
 لقد أشرت أبيات هاشم بن عتبة والققعاق أساء مدن وأشخاص ترتبط بوقعة
 جلولاء من أمثال (جلولاء، الكوفة، رستم، مهران،..) وفي ذلك إضافة مهمة
 للمعرفة التاريخية حُفِظَتْ لنا من خلال الشعر.

وعن طعن عمر بن الخطاب واستشهاده بعد ذلك في سنة (٢٣هـ/٦٤٣م)^(٢)
 يقول حسان بن ثابت:

فَجَعْنَا فَيْرُوزَ لَا دَرَّ دُرُّهُ بِأَبِيضَ يَتَلَوُ الْمُحْكَمَاتِ مُنِيبِ
 رَوْوْفٍ عَلَى الْأَدْنَى غَلِيظٍ عَلَى الْعِدَا أَخَى ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ نَجِيبِ
 مَتَى مَا يَقْلُ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلَ فَعْلُهُ سَرِيعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ غَيْرَ قَطُوبِ
 مُطِيعَ لِأَمْرِ اللَّهِ بِالْحَقِّ عَارِفِ بَعِيدِ الْأَنْامِ عِنْدَهُ كَقَرِيبِ^(٣)

يحدد الشاعر في رثائه اسم قاتل الخليفة، ويحكي صفات هذا الخليفة وهي: أنه
 رؤوف على الأدنى، غليظ على الأعداء، أخو ثقة في النائبات، لا يكذب القول،
 سريع على الخيرات غير قطوب، مطيع لأمر الله، عارف بالحق، يتساوى عنده البعيد
 من الناس كالقريب. هذا فضلاً عن تلاوته لكتاب الله، ورأفته، ونجاته...،
 فاستطاع توثيق خصال الخليفة شرعاً، وهذا شيء مهم يمكن أن يعتمد المؤرخ في
 التدوين التاريخي.

وعندما فتحت طبرستان^(٤) سنة (٣٠هـ/٦٥٠م)^(٥) في خلافة عثمان بن عفان (٢٣-
 ٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م) قال كعب بن جعيل^(٦) (ت، ٥٥هـ/٦٧٥م) مادحاً قائد
 الجيش الذي فتحها:

-
- (١) شعره، ضمن كتاب: شعراء إسلاميون، ٢٩.
 (٢) ابن خياط، تاريخ، ١/١٢٦؛ الطبري: تاريخ، ٤/١٩٣.
 (٣) ديوانه، ٢١٢.
 (٤) إقليم في بلاد (مازندران). كما في ياقوت: معجم البلدان، ١٣م٤ (طبرستان).
 (٥) ابن خياط: تاريخ، ١/١٤٢، ١٤١؛ الطبري: تاريخ، ٤م٢٧٠.
 (٦) هو كعب بن جُعيل بن قَمير، أحد بني تغلب (ت، ٥٥هـ/٦٧٥م). ترجمته: الجاحظ، البيان، ١/٦٣؛
 ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ١/٥٤٣.

فَنَجِمَ الْفَتَى إِذْ جَالَ جِيلَانُ دُونَهُ
تَعَلَّمَ سَعِيدَ الْخَيْرِ إِنْ مَطَيْتَى
كَأَنَّكَ يَوْمَ الشَّعْبِ لَيْثٌ خَفِيَّةٌ
تَسُوسُ الَّذِي مَا سَاسَ قَبْلَكَ وَاجِدٌ
وَإِذْ هَبَطُوا مِنْ دَسْتَبَى ثُمَّ أَبْهَرَا
إِذَا هَبَطَتْ أَشْفَقْتُ مِنْ أَنْ تُعْقَرَا
تَحَرَّدَ مِنْ لَيْثِ الْعَرِينِ وَأَصْحَرَا
ثُمَّانِينَ أَلْفَا دَارِعِينَ وَحُسْرَا^(١)

يبين الشاعر تعداد الجيش، وهم ثمانون ألفاً، وطبيعة استعدادهم للقتال، فهم دارعون وحسرا، أى بعضهم يرتدى الدروع وآخرون حسرا، أى غير دارعين، ولعلمهم فعلوا ذلك استماتة في قتال عدوهم.

أدت الفتنة التي ظهرت أيام الخليفة عثمان بن عفان إلى استشهاده في سنة (٣٥ هـ/ ٦٥٥ م)^(٢) فرثاه حسان بن ثابت بقوله:

إِنْ تُمَسِّ دَارَ بَنِي عُثْمَانَ خَاوِيَةً
فَقَدْ يُصَادِفُ بَأْغَى الْخَيْرِ حَاجَتُهُ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَبَدُوا ذَاتَ أَنْفُسِكُمْ
أَلَا تَتَيْبُوا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعْتَرَفُوا
فِيهِمْ حَبِيبَ شَهَابِ الْحَرْبِ يَقْدِمُهُمْ
بَابٌ صَرِيحٌ وَيَابٌ مُحَرَّقٌ خَرَبٌ
فِيهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْعُرْفُ وَالْحَسَبُ
لَا يَسْتَوِي الصُّدُقُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْكَذِبُ
كَتَائِبًا عُصْبًا مِنْ خَلْفِهَا عُصْبُ
مَسْتَلْتُمَا قَدْ بَدَا فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ^(٣)

يوثق الشاعر ما حدث في الفتنة من فتح باب دار الخليفة وحرق باب آخر، ويستنكر ذلك ويرى فيه تجاوزاً على إمام المسلمين، فيحاول الكشف عن جوانب الحدث الغامضة من خلال هذا الشعر.

ونتيجة لما حصل من فرقة بين المسلمين كان عهد الخليفة على بن أبى طالب (٣٥ هـ- ٤٠ هـ/ ٦٥٥-٦٦٠ م) مضطرباً بالصراعات والأحداث الجسيمة، فقد حذر أبو

(١) الطبري: تاريخ، ٤/ ٢٧٠-٢٧١.

(٢) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٥٤؛ الطبري: تاريخ، ٤/ ٤١٥.

(٣) ديوانه، ٢١٢-٢١٣.

الأسود الدؤلي^(١) (ت، ٦٧هـ/ ٨٦٨م) من الفتنة في وقعة الجمل سنة (٣٦هـ/ ٦٥٦م)^(٢) فقال:

أتينا الزبيرَ فدانى الكلامَ وطلحةَ كالنجم أو أبعُدْ
وأحسنَ قوليهما فادحُ يضيقُ به الخطبُ مستكذُ
وقد أوعدونا بجهدِ الوعيدِ فأهونَ علينا بما أوعدوا
فقلنا: ركضتم ولم ترملوا وأصدرتم قبل أن توردوا
فإن تلقحوا الحربَ بينَ الرجالِ فملقحها جده الأكدُ
وإنْ علياً لكم مُصحِرٌ إلا إنَّه الأسدُ الأسودُ
أما إنَّه ثالثُ العبادِ من بمكةَ والله لا يعيدُ
فزخوا الخناقَ ولا تعجلوا فإنْ غداً لكم موعِدُ^(٣)

الملاحظ على شعر أبي الأسود أن معانيه جاهلية لها صلة بالبادية، فقد شبه الحربَ بالناقة، وعلى بن أبي طالب (رضى الله عنه) بالأسد، واستفاد من مفردات الصحراء التي لها علاقة بالماء وبالورد والتصدير، وهذا ما جعل الكثير من مفردات وصور الشعر العربي قبل الإسلام تنهض من جديد، لتعود معها أفكار العصبية القبلية مشفوعة بالصراعات نتيجة شيوع الفرقة. فهذا أحد المقاتلين في وقعة الجمل يقلب سيفه ويرتجز:

نحنُ بنى ضبَّة أصحابُ الجملِ نُنازلُ الموتَ إذا الموتُ نزلُ

(١) هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي، أحد الفقهاء والمحدثين وواضع علم النحو (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦ م). ترجمته: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ٢/ ٦١٥؛ البغدادي، عبدالقادر بن عمر (ت، ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٣م): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول (دار الكتاب العربي والنشر، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ٢٨١.

(٢) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٦٠؛ الطبري: تاريخ، ٤/ ٥٠٦.

(٣) أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو بن سفيان (ت، ٦٧هـ/ ٦٨٦م): ديوانه، تحقيق محمد حسن آل ياسين (مكتبة النهضة، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٤م)، ١٠٣-١٠٤.

والموتُ أشهى عندنا من العَسَلِ نَنعَى أَيْنَ عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلِ
رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا ثُمَّ بَجَلْ^(١)

فهو يفخر بقومه وقبيلته، ولم يفخر بدينه وعقيدته أو صواب رأيه، مما يدل على عودة بعض المفاهيم القديمة نتيجة توثب نكرة الانتصار للأشخاص والقبائل، ثم نموها تدريجياً لتمهد إلى ظهور الصراعات القبلية في وقت آخر أيام الأمويين.

وظل الصراع قائماً بين الخليفة على بن أبي طالب (ت، ٤٠هـ / ٦٦٠م) وبين والي الشام معاوية بن أبي سفيان (ت، ٦٠هـ / ٦٧٩م) بحجة المطالبة بدم الخليفة المقتول عثمان بن عفان (رضى الله عنه) (ت، ٣٥هـ / ٦٥٥م) حتى حصل الجدل في الحرب والقتال في وقعة صفين^(٢) وذلك في سنة (٣٧هـ / ٦٥٧م)^(٣) فقال كعب بن جعيل التغلبي يرتجز:

أصبحت الأمة في أمرٍ عَجَبُ والمَلِكُ مَجْمُوعُ غَدَا لِمَنْ غَلَبُ
فَقُلْتُ قَوْلًا صَادِقًا غَيْرَ كَذِبُ إِنَّ غَدَا يُهْلِكُ أَعْلَامَ الْعَرَبُ
غَدَا نُلَاقِي رَبَّنَا فَنَحْتَسِبُ يَا رَبُّ لَا تَشْمِتْ بِنَا وَلَا تُصِبْ
مَنْ خَلَعَ الْأَنْدَادَ كُلًّا وَالصُّلْبُ غَدَا يُكُونُونَ رِمَادًا قَدْ كُثِبُ
بَعْدَ الْجَمَالِ وَالْحَيَاءِ وَالْحَسَبِ^(٤)

يشير الشاعر على حصول الفرقة، ونصيحته على الطرفين بالالتزام بسبيل الصدق والابتعاد عن مغريات الدنيا، لأن نهاية الحياة هو الموت، فلا ينفع الإنسان

(١) الطبري: تاريخ، ٥١٨/٤.

(٢) صفين: موقع قرب الرقة على شاطئ الفرات الغربي. كما في ياقوت: معجم البلدان، ٤١٤/٣ (صفين).

(٣) ابن خياط: تاريخ، ١/١٧٣؛ الطبري: تاريخ، ١٧/٥ وما بعدها.

(٤) المنقري، نصر بن مزاحم (ت، ٢١٢هـ / ٨٢٧م): وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (مكتبة الخانجي، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م)، ٢٢٥-٢٢٦.

بعد ذلك سوى عمل الخير والاحتساب لله، وقد بدت معاني الشاعر الأخلاقية ذات أثر ديني يلتزم بأفق التوجيه الإسلامي في حين يصف شَبْتُ بن رِبعي^(١) (ت، نحو ٨٠هـ/ ٦٩٩م) مجريات القتال في هذه الواقعة فيقول:

وَقَفْنَا لَدَيْهِمْ يَوْمَ صَفَيْنَ بِالْقَنَا	لَدُنْ غَدْوَةٍ حَتَّى هَوَتْ لَغْرُوبِ
نُجَالِدُهُمْ طَوْرًا وَطَوْرًا نَصْدُهُمْ	وَقَدْ أَرْضَتْ الْأَسْيَافُ كُلَّ غَضُوبِ
وَوَلَّى ابْنُ حَرْبٍ وَالرَّمَا حُ تَنُوشُهُ	عَلَى كُلِّ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ شَبُوبِ
بِكُلِّ أَسِيلٍ كَالْقِرَاطِ، إِذْ بَدَتْ	لِوَائِحِهَا بَيْنَ الْكُمَاةِ، لَعُوبِ
نُجَالِدُ غَسَانَ وَتَشْقَى بَحْرِنَا	جُدَامًا وَوَتَرَ الْعَبْدِ غَيْرُ طَلُوبِ
فَلَمْ أَرُ فُرْسَانًا أَشَدَّ حَفِيظَةً	إِذَا غَشَى الْآفَاقُ نَفْحُ جَنْبِ
أَكْرَ وَأَحْمَى بِالْغَطَارِيفِ وَالْقَنَا	وَكُلُّ حَدِيدِ الشُّفْرَتَيْنِ قَضُوبِ ^(٢)

يصف هذا الشعر أصحاب معاوية في هذه الواقعة وكيف كانوا يجالدونهم، ويشير إلى القبائل التي ساندتهم من أمثال غسان وجذام، ثم يصف أصحاب علي وإقدامهم في القتال مما يجعل من هذه الأبيات توثيقًا واقعيًا للحدث التاريخي. لأن ما يقال في أثناء الاشتباك ينبثق انبثاقًا مباشرًا من ظروف الواقع، فهذا قيس بن سعد بن عبادة^(٣) (ت، ٦٠هـ/ ٦٧٩م) يرتجز حين اشتد سعي الحرب فيقول:

أَنَا ابْنُ سَعْدِ زَائِنَةَ عِبَادَةَ	وَالخَزْرَجِيُّونَ رَجَالٌ سَادَةَ
لَيْسَ فِرَارِي فِي الْوَغَى بِعَادَةَ	إِنَّ الْفِرَارَ لِلْفَتَى قِلَادَةَ

(١) شَبْتُ بن رِبعي من بني العجفاء من بني رباح (ت، نحو ٨٠هـ/ ٦٩٩م). ترجمته: ابن دريد، أبو بكر بن الحسن الأزدي (ت، ٣٢١هـ/ ١٩٦٦م): الاشتقاق، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول (مكتبة المنى، بغداد، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ٢٢٣؛ ابن حبان: الثقات، ٤/ ٣٧١.

(٢) المنقري: وقعة صفين، ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، صحابي ولي مصر (ت، ٦٠هـ/ ٦٧٩م). ترجمته: ابن عبدالبر: الاستيعاب، ٣/ ٢٢٤؛ ابن حجر، تهذيب، ٨/ ٣٥٣.

يَا رَبَّ أَنْتَ لَقْنَى الشَّهَادَةَ وَالْقَتْلُ خَيْرٌ مِنْ عِنَاقِ غَادَةَ
حَتَّى مَتَى تُشَى لِي الْوَسَادَةَ^(١)

إنه يفخر بنسبه مما يشير إلى عودة الروح القبلية عند فرسان الطرفين، فقد كان
يناجر بُسْرَ بنَ أَرْطَاةَ^(٢) (ت، ٨٦هـ/ ٧٠٥م) من أصحاب معاوية، فكان بسر
يناجزه ويرتجز:

أَنَا ابْنُ أَرْطَاةٍ عَظِيمِ الْقَدْرِ مُرَدَّدٌ فِي غَالِبٍ مِنْ فَهْرِ
لَيْسَ الْفِرَارُ مِنْ طِبَاعِ بُسْرِ أَنْ يَرْجِعَ الْيَوْمَ بغيرِ وَثْرِ
وَقَدْ قَضَيْتُ فِي عَدُوِّي نَذْرِي يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي^(٣)

إنه لا يختلف عن خصمه قيس بن سعد في تعداد المزايا حينما يبدأ مفتخرًا بنسبه،
بما يكشف عن كون هذا الرجز يعرض واقعا ويوثق الحالة النفسية للمقاتلين، فيديم
الصلة بين الحدث التاريخي والشعور الذاتي وما يخفي وراءه من خلفية قبلية، وكأن
الحرب أصبحت صراع فرسان، وليست صراع مبادئ وحقوق وعقائد.

كان من نتائج وقعة صفين خروج بعض أصحاب الخليفة علي بن أبي طالب
اعتراضًا على النتائج التي تمخض عنها قبول التحكيم، فسموا بالخوارج^(٤)
والذين خاضعوا وقعة النهروان^(٥) ضد جيش الخلافة في سنة (٣٧هـ/ ٦٥٧م)^(٦)،

(١) المنقري: وقعة صفين، ٤٢٨.

(٢) هو بُسْرُ بنَ أَرْطَاةَ بنَ عويمر بن عمران من لؤي بن غالب. ترجمته: ابن سعد، محمد بن سعد (ت،
٢٣٠هـ/ ٨٤٤م): الطبقات الكبرى، الجزء السابع (دار صادر - دار بيروت، بيروت، ١٣٧٧هـ/
١٩٥٧م)، ٤٠٩؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ١/ ٢١٣.

(٣) المنقري: وقعة صفين، ٤٢٩.

(٤) وهم الذين خالفوا عليًا وأدوا إلا خلعه وإكفاره بالتحكيم، وخرجوا عليه، فسموا الخوارج. ينظر:
الأشعري، علي بن إسماعيل (ت، ٣٣٠هـ/ ٩٤١م): مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد (دار الحدائق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ٦٤.

(٥) النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي كما في ياقوت: معجم البلدان، ٥/
٣٢٥ (نهروان).

(٦) ابن خياط: تاريخ، ١/ ١٨٠؛ الطبري: تاريخ، ٥/ ٩٢.

فكان العيزار بن الأخنس الطائي^(١) أحد الخوارج يقف بين الصفيين ويقول:

ألا ليتنى فى يوم صفيين لم أؤب
وَقَطَّعت آرابا وألقت جئة
ولم أر قتلنى سنيس ولقتلهم
ثمانون من حىي جديلة قتلوا
ينادون لا لا حكم إلا لربنا
هم فارقوا فى الله من جار حكمه
فلا وإله الناس ما هاب معشر
شهدت لهم عند الإله بفلجهم
وآلوا إلى التقوى ولم يتبعوا الهوى
وغودرت فى القتلنى بصفين ناويا
وأصبحت ميتا لا أجيب المناديا
أشاب غداة البين منى النواصيا
على النهر كانوا يخضبون العواليا
حنانيك فاعفر حونا والمساويا
وكل عن الرحمن أصبح راضيا
على النهر فى الله الختوف القواصيا
إذا صالح الأقوام خافوا المخازيا
فلا يبعدن الله من كان شاريا^(٢)

يبين هذا الشعر عدد الذين قتلوا من حىي جديلة، وهم ثمانون، ويكشف عن عقيدة الخوارج الذين يرون بأن لا حكم إلا لله، فضلا عن إشارته إلى يوم النهر، وإلى الشراة^(٣) الذين شروا أنفسهم طالبين الموت فى سبيل الله^(٤) فكان شعرهم ينطق بما توليهم عليهم عقيدتهم.

(١) أحد شعراء الخوارج، وقيل: إن اسمه الأخنس بن العيزار. ينظر: ابن الأعمش، أحمد بن أعثم الكوفي (ت، نحو ٣١٤هـ/٩٢٦م): الفتوح، إشراف محمد عبدالمعيد خان، الجزء الرابع (مطبعة مجلس المعارف العثمانية، حيدر آباد الدين، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ١٢٩.

(٢) شعر الخوارج، جمع وتحقيق: إحسان عباس (دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م)، ٣٢-٣٣.

(٣) اختلف فى أول من شرى قفيل: عروة بن مرداس أخو بلال بن مرداس الخارجي، وقيل يزيد بن عاصم. ينظر: البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد التميمي (ت، ٤٢٩هـ/١٠٣٧م). الملل والنحل، تحقيق: البير نصري نادر (دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٦م)، ٥٨.

(٤) ينظر: شعر الخوارج، ١٠.

أدى الصراع الدامي بين الخليفة على بن أبي طالب رضى الله عنه وبين معاوية إلى
استشهاده سنة (٤٠هـ / ٦٦٠م) فقال أبو الأسود الدؤلى مخاطباً معاوية:

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ فلا قرئت عيون الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتموئنا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتهم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
ومن ليس النعال ومن حداها ومن قرأ المثانى والمثينا
إذا استقبلت وجه أبى حسينٍ رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريشٍ حيث كانت بأنك خيرهم حسباً وديناً^(١)

يعد هذا الرثاء تعبيراً عن موقف يدعم موقفه ضد معاوية، لأن أبا الأسود من
أصحاب على المخلصين الذين تحسسوا فضائله، وأدركوا مكانته الدينية والاجتماعية
مما يكشف عن تلازم الشعر مع الحدث التاريخي، فقد كانت وفاة الخليفة على بن أبي
طالب منعطفاً حرجاً فى تاريخ الدولة العربية الإسلامية، إذ بدأ بعدها اتجاه سياسى
جديد وتراث شعرى له خصائص التى عادت بالقصيدة إلى صراعات القبائل
ومتغيرات القوى.

(١) ديوانه، ٧١-٧٢.